

IBN RAJAB

NUR ALOIQTIBAS FI MISHKAT
WASIYAT AL-NABI

نور الاقتباس

في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما

لحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن المعروف بابن رجب الحنبلي
المتوفى سنة ٧٩٥ هـ

حققه وضبطه وعلق عليه الأستاذان

السيد محمود خليفه

أستاذ الشريعة الإسلامية
في كلية غردون التذكارية

و

السيد عبد الفتاح خليفه

الأستاذ بدار العلوم
والمفتش بوزارة المعارف سابقاً

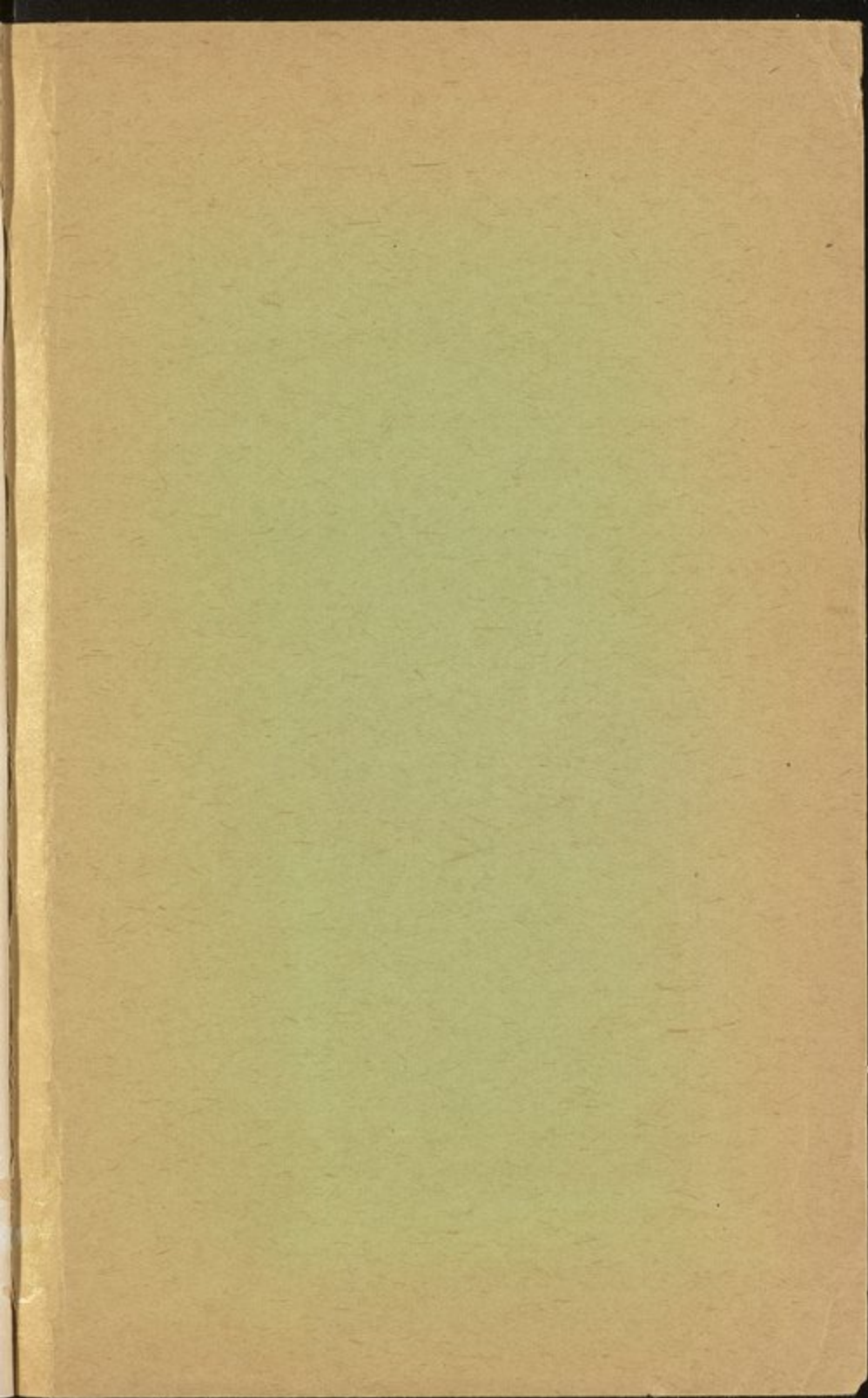
من أعضاء جماعة التعاون العلمي

[حقوق الطبع والنشر محفوظة للجماعة]

الطبعة الأولى

١٣٦٥ - ١٩٤٦

مطبعة مركز تيسار مصر



نور الاقتباس

في مَشَاةِ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

للمحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن المعروف بابن رجب الحنبلي
المتوفى سنة ٧٩٥ هـ

Nūr al-igtibās

حققه وضبطه وعلق عليه الأستاذان

الشيخ محمود خليف

أستاذ الشريعة الإسلامية
في كلية غردون التذكارية

و

الشيخ عبد الفلاح خليف

الأستاذ بدار المعلوم
والفتش بوزارة المعارف سابقاً

من أعضاء جماعة التعاون العلمي

[حقوق الطبع والنشر محفوظة للجماعة]

الطبعة الأولى

١٣٦٥ - ١٩٤٦

مطبعة مصر شركة ميساها مصر

1870

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
وبعد فقد حضر في اجتماعنا

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد حضر في اجتماعنا

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله يحفظ بنصره وتأييده ، وحوله وقوته ، من حفظ الدين ، وأقام حدود رب العالمين ، وعمل بالكتاب والسنة . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، القائل : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ؛ وعلى آله وأصحابه الحافظين لحدوده ، العالمين بكتابه ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . « وبعد » فقد تكونت « جماعة التعاون العلمي » من نخبة من علماء هذا العصر ، غرضها إخراج الكتب الدينية ، التي تجمع الحكمة والموعظة الحسنة ، وتألّف ما تراه نافعاً مناسباً لهذا العصر من العظة والإرشاد ، وهذا كتاب « نور الاقتباس » للحافظ الواعظ الإمام : « زين الدين بن رجب الحنبلي » — أول — بأكورة من أعمالها ، تخرجه للناس بعد أن رأته مفيداً في بابه نافعاً لقارئه ، وبعد ضبطه والتعليق عليه ، راجية به النفع ، وجيل الأثر . والله المستعان ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

9-15-11 0.5.5

التعريف بالمؤلف

هو الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الإمام المقرئ المحدث شهاب الدين أحمد ابن الإمام المحدث أبي أحمد رجب . والمؤلف مشهور بابن رجب الحنبلي ، وهو الإمام العالم الزاهد القدوة البركة الحافظ العمدة الثقة الحجة الحنبلي المذهب . قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير ، سنة أربع وأربعين وسبعائة ، وأجازه ابن النقيب والنووي ، وسمع بمكة على الفخر عثمان بن يوسف ، واشتغل بسماع الحديث باعتناء والده ، وسمع بمصر من صدر الدين أبي الفتح الميدومي ، ومن جماعة من أصحاب ابن البخاري . وكانت مجالس تذكيره للقلوب صارعة ، وللناس عامة مباركة نافعة ، اجتمعت الفرق عليه ، ومالت القلوب بالحببة إليه ، وله مصنفات مفيدة ، ومؤلفات كثيرة ، طبع أغلبها ونفد ، لكثرة إقبال الناس عليه ؛ ومن هذه المؤلفات كتاب « نور الاقتباس » شرح فيه حديث وصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما — شرحاً يدل على غزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، وقوة تأثيره . وتوفي بدمشق ليلة الاثنين لأربع خلون من رمضان ، ودفن هناك سنة خمس وتسعين وسبعائة رحمه الله رحمة واسعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين وعليه نتوكل

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا ويرضى ،
وكما ينبغي لكرم وجهه ، وعز جلاله . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ،
 وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أخرج الإمام أحمد^(١) من حديث حنش^(٢) الصنعاني ، عن
ابن عباس^(٣) رضي الله عنهما قال : كنت رديف^(٤) النبي ﷺ

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل علم أعلام بغداد ، تجاوز سبعمائة وسبعين سنة
وطلب العلم سنة تسع وسبعين ومائة وكان إماماً في الحديث وضروبه ، والفقه ودقائقه ، والسنة
وعلومها ، ورعا زاهداً . ولد ببغداد ، ونشأ بها ، ومات بها ، ورحل إلى الكوفة والبصرة
ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ، وهو أحد الأئمة الأربعة الذين لا تزال مذاهمهم
متبعة مشهورة إلى اليوم . ولما مات شيع جنازته من الرجال ثمانمائة ألف ، ومن النساء
ستون ألفاً ، وكانت وفاته في الثاني عشر من ربيع الأول صبيحة الجمعة سنة إحدى وأربعين
ومايتين رحمه الله رحمة واسعة . (٢) هو حنش بن عبد الله الصنعاني نسبة إلى صنعاء دمشق .
كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة ، سنة مائة ، ولي عشور لإفريقية ، وروى عن جماعة .
(٣) هو عبد الله بن عباس كني بأبيه العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وكان
أكبر ولده ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان
ابن عباس قد فات الناس بحصال : يعلم ما سبقه ، وفقه فيما احتجج إليه من رأيه ، وحلم
ونسب وتأويل ، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
منه ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفضه في رأيه منه ، ولا أعلم بشعر
ولا عربية ، ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه ، ولا أفتق رأياً فيما احتجج
إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً للفقه ، ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ،
ويوماً لأيام العرب ، أه ، وقد روى عنه خلق كثير . وكان جميلاً أبيض جسيماً وسيماً
صبيح الوجه فصيحاً ، توفي سنة ثمان وستين بالطائف وهو ابن سبعين سنة رضي الله عنه .
(٤) وفي رواية خلف .

فقال : يا غلام ، أو يا غليم^(١) : ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت^(٢) :
 بلى ! فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله^(٣)
 في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت
 فاستعن بالله ، قد جفَّ القلمُ بما هو كائنُ ؛ فلو أن الخلقَ كلَّهم جميعاً أرادوا
 أن ينفعوك بشيءٍ لم يقضه^(٤) الله عليك — لم يقدروا عليه ؛ وإن أرادوا أن
 يضروك بشيءٍ لم يكتبه الله عليك — لم يقدروا عليه ؛ واعلم أن في الصبر
 على ما تكره خيراً كثيراً ؛ وأن النصر مع الصبر ؛ وأن الفرج مع الكرب ؛
 وأن مع العسر يسراً .

هكذا ساقه من طريق حنش مع إسنادين آخرين منقطعين^(٥) ،
 وفي السياق أنه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض^(٦) وخرجه أيضاً
 من طريق حنش وحده مختصراً ولفظه : يا غلام إني محدثك حديثاً :
 احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ،
 وإذا استعنت فاستعن بالله فقد رُفِعَتِ الأَقلامُ ، وجرَّتِ الكُتُبُ ، فلو جاءت
 الأمة أن ينفعوك^(٧) بشيءٍ لم يكتبه الله لك لما استطاعت^(٨) ، وخرجه

(١) شك من الراوى ، وهذا يدل على كمال العناية بالمحافظة على لفظ الحديث .
 (٢) في نسخة المسند التي بأيدينا : فقلت . (٣) في نسخة المسند التي بأيدينا :
 تعرف إليه . (٤) في نسخة المسند التي بأيدينا : لم يكتبه . (٥) المنقطع : ما سقط
 من رواته راو واحد قبل الصحابي في الموضوع الواحد وكذا في موضعين فأكثر
 حيث لا يزيد الساقط في كل منها على واحد . (٦) الذي في جامع العلوم والحكم
 للمؤلف : « ولم يميز لفظ بعضها من بعض » . (٧) في نسخة المسند التي بأيدينا :
 ينفعونك بثبوت النون وحذف أن . (٨) وزاد في المسند : ولو أرادت أن تضرك
 بشيءٍ لم يكتبه الله لك ما استطاعت .

الترمذى^(١) بنحو هذا السياق المختصر ، ولهذه : إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليكم ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف . وقال : حديث صحيح^(٢) .
وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده^(٣) : لهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أحقها ، قال : وهذا إسناد مشهور^(٤) ورواته ثقات .

قلت : قد روى هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما من رواية جماعة فمنهم على ابنه^(٥) ، وعطاء^(٦) ، وعكرمة^(٧) ، ومن رواية عمر مولى

(١) هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير ، تلميذ أبي عبد الله البخارى ومشاركه فيما يرويه في عدة من مشايخه ، سمع منه شيخه البخارى وغيره ، وهو أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث ، وتوفى رحمه الله سنة تسع وسبعين ومائتين . (٢) الصحيح : ما رواه عدل تام الضبط متصل السند غير معطل ولا شاذ . (٣) هو أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن منده بفتح الميم والدال المهملة بينهما نون ساكنة وفي الآخر هاء ساكنة ، العبدى الحافظ المشهور صاحب كتاب تاريخ أصبهان . كان من الحفاظ الثقات ، وحدث عنه الطبرانى وغيره ، توفى سنة إحدى وثلاثمائة . (٤) المشهور ماله طرق محصورة بأكثر من اثنين بخلاف النواتر وهو الذى لا حصر لطرفه في عدد معين . (٥) على بن عبد الله بن عباس وكنيته أبو محمد كان سيداً شريفاً ، أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمه وأكثره صلاة روى أن علياً جاء ابن عباس يهتسه به يوم ولد ، وقال له : شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب ، ما سميته ؟ قال : أو يجوز أن أسميه حتى تسميه !!! ثم حنكه ، ودعا له ، وقال : خدامك الخلائق والأملك ، سميته علياً وكنيته أبا الحسن . وكان إذا قدم مكة ، اشتغلت به قريش وأهل مكة إجلالاً له ، وتوفى عن ثمانين سنة بأرض البلقاء سنة أربع عشرة ومائة رحمه الله رحمة واسعة . (٦) عطاء : هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح ، نشأ بمكة ، وتعلم الكتاب بها ، وكان عبداً أسود سمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس . قال أبو حنيفة ما رأيت أفضل منه . وقد انفرد بالفتوى بمكة هو ومجاهد . جلس بين يديه سليمان بن عبد الملك فعلمه مناسك الحج وتوفى بمكة سنة أربع عشرة ومائة رحمه الله رحمة واسعة . (٧) عكرمة : هو أبو عبد الله عكرمة =

عبد الملك بن عمير ، وابن أبي مليكة عن ابن عباس ، وقيل إنهما لم يسمعا منه ، وفي أسانيدهما كلها مقال ، وفي ألفاظها بعض الزيادة والنقص (١) .

وروى عن النبي ﷺ أنه وصى بذلك ابن عباس من حديث علي ابن أبي طالب (٢) ، وأبي سعيد الخدري (٣) ، وسهل بن سعد (٤) ، وغيرهم من الصحابة وفي أسانيدها أيضاً مقال ، وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة وبعضها أصلح من بعض . قلت : وأجود أسانيد من رواية

= مولى أبي عباس أحد فقهاء مكة من التابعين الأعلام أصله من البربر وهب لابن عباس فعله ورحل إلى مصر وخراسان واليمن وأصبهان والمغرب وغيرها ، وأذن له مولاه بالفتوى ، ولما مات مولاه باعه ابنه علي من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار فقال له عكرمة : بعث علم أيك بأربعة آلاف !!! فاستقاله فأقاله ثم أعتقه . وقد مات سنة خمس ومائة وعمره ثمانون سنة . (١) الذي قاله المؤلف في جامع العلوم والحكم : وقد روى هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة : من رواية ابنه علي ، ومولاه عكرمة ، وعطاء بن أبي رباح ، وعمرو بن دينار ، وعبيد الله بن عبد الله ، وعمر مولى عفره ، وابن أبي مليكة وغيرهم ، وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي ، كذا قاله ابن منده وغيره . (٢) هو أبو الحسين علي ابن أبي طالب الهاشمي سامي المناقب أول الناس إسلاماً ، وأغزرهم علماً . ولي الخلافة سنة ست وثلاثين واستشهد سنة أربعين صبيحة يوم الجمعة سابع عشر رمضان وعمره ثلاث وستون سنة . ودفن بالكوفة في قصر الإمارة عند المسجد الجامع ، وغيب قبره . (٣) هو سعد بن مالك ابن شيبان ، وكنيته أبو سعيد الخدري من مشهورى الصحابة وفضلائهم ، وأول غزاة حضرها الخندق ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة قال : قتل أبي يوم أحد شهيداً ، وتركتنا بغير مال ، فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله شيئاً ، فلما رأى قال : من استغنى أغناه الله ، ومن يستغنى أغناه الله ، قلت : ما يريد غيرى ، فرجعت ، وكان من حفاظ الحديث المكثرين ، توفي سنة أربع وسبعين يوم الجمعة ودفن بالبقع وهو ممن له عقب من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . (٤) هو أبو العباس سهل بن سعد الساعدي الأنصاري وكان اسمه خزنأ فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلاً ، رأى الرسول وسمع منه وكانت سنه خمس عشرة سنة يوم توفي الرسول ، وطال عمره حتى أدرك الحجاج وقد قارب المائة ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة إحدى وتسعين .

حشش عن ابن عباس التي ذكرناها وهو إسناد حسن (١) لا بأس به .
 وقد استوفينا ذكر طرق الحديث مع الكلام عليها في كتاب شرح
 الترمذى ، ومقصودنا الكلام على معنى الحديث ، وشرح ألفاظه ، فإنه تضمن
 وصايا عظيمة ، وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها ، حتى قال الإمام
 أبو الفرج بن الجوزى (٢) في كتابه « صيد الخاطر » : تدبرت هذا الحديث
 فأدهشني ، وكدت أطيش ، ثم قال : فوأسفا من الجهل بهذا الحديث
 وقلة الفهم لعناه .

فقوله صلى الله عليه وسلم :
 « احفظ الله يحفظك » يعنى احفظ حدود الله ، وحقوقه ، وأوامره ،
 ونواهيه . وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه
 بالاجتناب ، وعند حدوده : فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أمر به إلى ما نهى عنه ،
 ودخل في ذلك فعل الواجبات جميعاً ، وترك المحرمات كلها ، كما في حديث
 ثعلبة المرفوع (٣) : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات

(١) الحسن : ما اتصل سنده بنقل عدل قل ضبطه عن عدل قل ضبطه إلى منتهاه
 بلا شذوذ ولا علة . (٢) هو أبو الفرج بن الجوزى ، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي
 ينتهى نسبه إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فهو قرشى تيمى بكرى بفسدادى بلداً
 حنبلى مذهباً ، كان واعظاً متمقلاً له تصانيف كثيرة في التفسير والحديث والفقهاء والزهد
 والوعظ والتاريخ والطب ، ولد سنة عشر وخمسمائة . وتاب وأسلم على يديه خلق كثير .
 ومما قاله في بعض مناجاته : إلهى لا تعذب لساناً يخبر عنك ، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل
 عليك ، ولا قدماً تمشى إلى خدمتك ، ولا يداً تكتب حديث رسولك ، فبعزتك لا تدخلني
 النار ، فقد علم أهلها أني كنت أذب (أدافع) عن دينك ، وقد توفي ليلة الجمعة بين
 العشاءين من شهر رمضان ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة . (٣) المرفوع : ما أضيف
 إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فلا تنتهكوها ، وحدد حدوداً فلا تعتدوها » (١) وذلك كله يدخل في حفظ حدود الله كما ذكره الله تعالى في قوله : « والحافظون لحدود الله » الآية (٢) وقال تعالى : « هذا ما توعدون لكل أوابٍ حفيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » (٣) وفسر الحفيظ ههنا بالحافظ لأوامر الله . وفسر بالحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها . وكلاهما يدخل في الآية .

وَمَنْ حَفِظَ وَصِيَّةَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ وَامْتَثَلَهَا فَهُوَ دَاخِلٌ أَيْضًا ، وَالْكُلُّ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ حَدِيثِ (٤) يَوْمَ الْمَزِيدِ (٥) فِي الْجَنَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِذَا اسْتَدْعَاهُمْ إِلَى زيارته ، وَكشَفَ لَهُمُ الْحِجَبَ : « مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ حَفِظُوا وَصِيَّتِي ، وَرَعَوْا عَهْدِي ، وَخَافُونِي بِالْغَيْبِ ، وَكَانُوا مِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ مُشْفِقِينَ » .

فأمره صلى الله عليه وسلم لابن عباس أن يحفظ الله يدخل فيه هذا كله .

(١) ونصه كما في جامع العلوم والحكم : عن أبي ثعلبة الحشني (جرثوم بن ناشر) رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . حديث حسن رواه الدارقطني وغيره . (٢) سورة التوبة آية (١١٢) . (٣) سورة ق آية (٣٢ و٣٣) . (٤) الحديث بطوله في زيارة أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وفيه بعد قوله مشفقين : « قالوا : أما عزتك وجلالك وعلو مكانك ما قدرناك حق قدرك ، ولا أدبنا إليك كل حقك ، فأذن لنا بالسجود لك ، فقال لهم ربهم تبارك وتعالى : إني قد وضعت عنكم مؤنة العبادة ، وأرحمت لكم أبدانكم ، فطلما أنصبتهم الأبدان ، وأعنتهم الوجوه ، فالآن أفضيتهم إلى روحى ورحمتى وكرامتى فسلوني ما شئتم ، وتمنوا على أعطكم أمانيتكم ، فإني لن أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم ، ولكن بقدر رحمتى ، وكرامتى ، وطولى ، وجلالى ، وعلو مكانى ، وعظمة شأنى الحديث . (٥) سمي يوم المزيد لما زاده الله لأهل الجنة على ما طلبوه وتمنوه فقد جاء في الحديث : فقد أوجبت لكم ما سألتهم وتمنيتهم وزدتكم على ما قصرت عنه أمانيتكم .

ومن أعظم ما يجب حفظه من الأمور: الصلوات الخمس . قال الله تعالى : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى (١) . وقال تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » (٢) . وقال النبي ﷺ : « مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ » الحديث (٣) وفي حديث آخر : « مَنْ حَافِظَ عَلَيْهِمْ كُنَّ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الحديث (٤) . وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة . وقال النبي ﷺ : « لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ » (٥) « فَإِنَّ الْعَبْدَ تَفْتَقِصُ طَهَارَتُهُ وَلَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ » (٦) .
فالمحافظة على الوضوء للصلاة دليل على ثبوت الإيمان في القلب .

(١) سورة البقرة آية (٢٣٨) .

(٢) سورة الماعز آية (٣٤) .

(٣) هكذا في الأصل بنصب (عهداً) وجاء بالرفع في رواية عبادة بن الصامت رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة . رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه .

(٤) أخرج هذا الحديث احمد بسند جيد والطبراني وابن حبان في صحيحه ، ولفظه إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » . قال بعض العلماء : وإنما حشر مع هؤلاء لأنه إن اشتغل عن الصلاة بماله أشبه قارون فيحشر معه ، وإن اشتغل عنها بملكه أشبه فرعون فيحشر معه . وإن اشتغل عنها بوزارته أشبه هامان فيحشر معه ، وإن اشتغل عنها بتجارته أشبه أبي بن خلف تاجر كفار مكة فيحشر معه .

(٥) روى هذا الحديث عن ثوبان رضى الله عنه ولفظه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدودوا وقاربوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » رواه ابن حبان في صحيحه .

(٦) يشير بهذا إلى أن الطهارة تتجلى فيها الإخلاص فإن انتقاضها سر بين العبد وربّه ، فكيف حال عبد يأتى الصلاة بغير طهارة وأمره لا ينجي على ربه !!؟

ومما أمر الله بحفظه الإيمان : لما ذكر كفارة اليمين قال : « ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ »^(١) فإن الأيمان كثيراً ما تقع من الناس وموجباتها مختلفة : فتارة يجب بها كفارة يمين^(٢) ، وتارة يجب بها كفارة مغلظة^(٣) ، وتارة يلزم بها الحلوف عليه من طلاق ونحوه^(٤) ، فمن حفظ أيمانه دل على دخول الإيمان في قلبه . وكان السلف كثيراً يحافظون على الأيمان ، فبعضهم من كان لا يحلف بالله البتة ، ومنهم من كان يتورع حتى يكفر فيما شك فيه الحنث^(٥) . ووصى الإمام أحمد رحمه الله عند موته أن يُخْرِجَ عنه كفارة يمين . وقال : أظن أني حنثت في يمين حلفتها . وقد روى عن أيوب عليه السلام أنه كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب

(١) المائة آية (٨٩) والمعنى احفظوا أنفسكم من الحنث في الأيمان ولا تبدلوا ، وأقلوا من الحلف فإن ذلك مسقط لهيبتكم ، وهذا كما قال تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم »
 (٢) المراد اليمين المنقذة وهي ما يحلف بها الإنسان على أمر في المستقبل أن يفعله أو لا يفعله ، وإذا حنث في ذلك لزمته الكفارة . واليمين تكون بالله تعالى ، أو باسم آخر من أسماء الله تعالى ، كالرحمن والرحيم ، أو بصفة من صفاته التي يحلف بها عرفاً كقوله الله وجلاله وكبريائه . ومن حلف بغير الله لم يكن حالفاً كالبي والكعبة . وكفارة هذه اليمين أن يعتق الحانث رقبة ، أو يكسو عشرة مساكين كل واحد ثوباً ، وأدناه ما يستر طامة البدن ، أو يطعم عشرة مساكين بأن يهديهم ويعشيمهم ، غداء وعشاء مشبعين ، من أوسط ما يطعم أهله . وهو على الخيار بين العتق والكسوة والإطعام ، متى كان قادراً ، فإن يجز صام ثلاثة أيام متتابعات .
 (٣) كما في كفارة الظهار . وهي عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ليس فيهما شهر رمضان ، ولا يوم الفطر ، ولا يوم النحر ، ولا أيام التشريق . فإن لم يستطع فأطعام ستين مسكيناً ما يشبعهم غداء وعشاء ، من أوسط ما يطعم أهله .
 وتجب هذه الكفارة بهذا الترتيب على من قال لزوجه أنت على كظهر أمي فلا يحل له وطؤها ولا مسها ولا تقبيلها حتى يكفر عن ظهاره .

(٤) كمن قال لزوجه : إن دخلت الدار فأنت طالق فطلق إن دخلت الدار ، وكمن قال لعبد : إن رزقني الله ولداً فأنت حر فرزق بولد عتق العبد .
 (٥) كذا بالأصل ، والأوضح « فيما شك في الحنث فيه » .

فكفر عنهما يمينهما ، لثلاثا يأتيا وهما لا يشعران ، ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة أفتاه الله بالرخصة^(١) لحفظه لأيمانه وأيمان غيره . وقد اختلف العلماء هل تتعدى الرخصة إلى غيره أم لا^(٢) .

وقال يزيد بن حبيب : بلغني أن من حَمَلَة العرش من يسيل من عينيه أمثال الأنهار من البكاء ، فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُحْشَى حق خشيتك ، فيقول الله تعالى : لكن الذين يخلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك^(٣) .

وقد ورد التشديد العظيم في الحلف الكاذب بالله^(٤) ، ولا يصدر كثرة الحلف بالله إلا من الجهل بالله تعالى ، وقلة هيئته في الصدور .
ومما يلزم المؤمن حفظه رأسه وبطنه ، كما في حديث ابن مسعود^(٥)

(١) وذلك أن امرأة أيوب عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت خلف ليضر بنها إن برى ، مائة ضربة فأمره الله تعالى أن يأخذ الضفت — وهو عود فيه تسعة وتسعون عوداً — فيضربها به فإن البر في يمينه يتحقق به .

(٢) في أحكام القرآن العظيم للجلال السيوطي : عن مجاهد قال : كانت هذه الرخصة لأيوب خاصة ، اه وقال بعض العلماء : ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر إلى أن من فعل ذلك فقد بر في يمينه ، وخالف مالك وراه خاصة بأيوب عليه السلام .

(٣) فيه وعيد شديد لمن يخلف بالله كاذباً وأنه مجرد من خشية الله تعالى والخوف منه (٤) قال تعالى : « إن الذين يشترون بمهاد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم » سورة آل عمران آية « ٧٧ » وروى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف على منبري هذا يمين آتمة تبوأ مقعده من النار » . (٥) هو عبد الله بن مسعود الهذلي أحد القراء الأربعة ، ومن السابقين في الإسلام ، ومن علماء الصحابة رضی الله عنهم : هاجر الهجريين ، وصلى إلى القبلتين ، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وقال له : « إنك عليم معلم » وكان من المكترين من رواية الحديث روى ثمانية وأربعين وثمانمائة حديث مات سنة اثنتين وثلاثين عن نيف وستين سنة ، ودفن بالبيعة .

رضى الله عنه مرفوعاً : « الاستحياء من الله حق الحياء : أن يُحفظ الرأسُ وما وعَى ، ويُحفظَ البطنُ وما حوى ^(١) خرجه الإمام أحمد والترمذى . وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على محرم . وقد جمع الله ذلك كله في قوله تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » ويدخل في حفظ البطن وما حوى حفظه من إدخال الحرام إليه من الماء كولات والمشروبات ^(٢) . وما يجب حفظه من المهيات — حفظ اللسان والفرج ، وفي حديث أبي هريرة ^(٣) رضى الله عنه : من حفظ ما بين حليئيه وما بين رجله دخل الجنة » خرجه الحاكم وخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولفظه :

(١) والحديث بتمامه كما جاء في كتاب الأدب وغيره في الترغيب والترهيب : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حق الحياء ، قال : قلنا : يا نبي الله ، لئلا نستحي والمحدثه . قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » . (٢) ومما ورد في النهي عن تناول الحرام ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقتذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأياما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » رواه الطبراني في الصغير . (٣) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي كان يسمى في الجاهلية عبد شمس فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن أسلم عام خير سنة سبع وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لزمه رغبة في العلم ، وكان كثير العبادة والذكر حسن الأخلاق وكان من المكثرين ، بلفت مروياته أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف حديث ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من صاحب وتابع ، ولى إمرة المدينة واستعمله عمر على البحرين ثم عزله ثم أراده على العمل فامتنع وسكن المدينة وبها كانت وفاته سنة سبع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

« من يضمن لى ما بين لَحْيَيْهِ ^(١) ورجليه أضمن له الجنة » وفي مسند الإمام أحمد عن أبى موسى ^(٢) عن النبي ﷺ قال : « من حفظ ما بين قُفْمَيْهِ ^(٣) وفرجه دخل الجنة » .

وقد أمر الله بحفظ الفرج خاصة ، ومدح الحافظين . قال الله تعالى :
 « قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ مِنَ ابْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » الآية ^(٤) . وقال تعالى : « وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ » ^(٥) . وقال تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ^(٦) » .

(١) لحيه بفتح اللام وسكون الحاء المهملة تننية لحي وهما العظان في جانبي القم ، والمراد بما بينهما اللسان ، وبما بين رجليه الفرج ، ومعنى « من يضمن » من يؤد الحق الذى عليه يحفظ لسانه من الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور وهجر القول وكل كلام يأثم به فائله ، وحفظ فرجه من كل ما حرم الله عليه . وفي الحديث إشارة إلى أن أعظم البلاء على العبد في الدنيا اللسان والفرج فمن وفى من شرهما فقد وفى أعظم الشر .
 (٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان علامة نسابة ، قدم إلى مكة من اليمن مع إخوته في جماعة من الأشعرين ثم أسلم وانصرف إلى بلاده ، ثم رغب في العودة إلى مكة مع نحو خمسين من الأشعرين في سفينة فألقتهم الريح إلى الحبشة ، فوافقوا خروج جعفر بن أبى طالب وأصحابه منها وأتوا معهم فقدمت السفينتان معاً المدينة حين فتح خير فقسم صلى الله عليه وسلم لأهل السفينتين من المغام ، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زيد وعدن ، واستعمله عمر على البصرة سنة سبع عشرة ، وسار بأمر عمر إلى الأهواز ففتحها وفتح نصيبين سنة تسع عشرة وفتح أصبهان سنة ثلاث وعشرين ثم عزله عثمان عن البصرة فسار إلى الكوفة وبقى بها حتى طالب أهلها عثمان بولاية أبى موسى على الكوفة ؛ فأجابهم وبقى بها حتى قتل عثمان فعزله على ، وكان أحد الحكيمين في التحكيم بين على ومعاوية ومات بالكوفة سنة اثنتين وأربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة . (٣) قفميه بضم الفاء وسكون القاف وفتح الميم تننية قفم وهما اللحيان ، والمراد بما بينهما اللسان . (٤) سورة النور آية (٣٠) . (٥) سورة الأحزاب آية (٣٥) . (٦) سورة المؤمنون آية (٦٥) .

وقد روى عن أبي إدريس الخولاني (١) : إن أول ما وصَّى الله آدم عند إهباطه إلى الأرض بحفظ (٢) فرجه وألا يضعه إلا في حلال .

قوله : « يحفظك » يعني أن من حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه — حفظه الله ؛ فإن الجزء من جنس العمل ، كما قال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » (٣) وقال : « فَأَذْكَرُونِي أذْكَرْكُمْ » (٤) . وقال : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » (٥) .

وحفظ الله تعالى لعبده يتضمن نوعين : أحدهما حفظه له في مصالح دنياه ، كحفظه في بدنه ، وولده ، وأهله ، وماله .

وفي حديث ابن عمر (٦) رضى الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى ، وحين يصبح : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ؛ اللهم إني أسألك العفو (٧) والعافية (٨) في ديني ودنياي وآخرتي (٩) ، وأهلي ، ومالي ؛ اللهم استر عوراتي (١٠) ، وآمن روعاتي (١١) واحفظني (١٢) من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ،

(١) الخولاني بفتح الحاء وسكون الواو نسبة إلى خولان وهي قبيلة باليمن واسمه عائد الله بن عبد الله . (٢) هكذا في الأصل بحذف (وصاه) وإثبات الباء . (٣) سورة البقرة آية (٤٠) . (٤) سورة البقرة آية (١٥٢) . (٥) سورة محمد آية (٧) . (٦) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي السيد الجليل ، الفقيه العابد الزاهد ، اعتمر قريبا من ألف عمرة ، قال مالك : بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة أفنى في ستين منها . ومروياته ألفان وستائة وثلاثون حديثا ، وكان من أكثر الصحابة حفظاً وقتياً ولما مات أمرهم أن يدفنوه ليلا ولا يعلموا الحجاج لثلا يصل عليه ، ودفن بمكة سنة أربع وسبعين رضى الله عنه . (٧) التجاوز عن الذنوب . (٨) السلامة من الآفات . (٩) في رواية بحذف : آخرتي . (١٠) المراد : معالي . (١١) مفرده روعة وهي الفرعة . (١٢) في رواية : اللهم احفظني .

وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي^(١)، خَرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ،
وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ.

وَهَذَا الدُّعَاءُ مُنْتَزَعٌ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ^(٢) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ^(٣)» الْآيَةَ^(٤). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُمُ الْمَلَائِكَةُ
يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدْرَ خَلَوْا عَنْهُ، وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
إِنْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مَلَائِكَةٌ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدْرَ خَلَّيَا بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُ، وَإِنْ الْأَجَلَ جُنَّةً حَصِينَةً^(٥).

(١) طَلِبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَهُ مِنَ الْآفَاتِ الَّتِي تَأْتِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ السَّتِّ
وَحَسَّ مَا يَأْتِي مِنْ تَحْتِ - بِالِاسْتِعَاذَةِ بِعَظَمَتِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْحَسْفِ وَهُوَ أَشَدُّهَا .
(٢) وَالْمُعَقَّبَاتُ : مَلَائِكَةٌ يَتَعَقَّبُونَ فِي حِفْظِ الْعَبْدِ وَكَلَاءَتِهِ بِغَيْرِ فَاصِلٍ وَمَهْلَةٍ وَفِي
الصَّحِيحِ : يَتَعَقَّبُ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ
العَصْرِ . (٣) الْمَعْنَى أَنَّ الْمُعَقَّبَاتِ مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ جَوَانِحِهِ « مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » مِنَ السَّبِيَةِ أَيْ
يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْمَضَارِّ بِسَبَبِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِذَلِكَ وَقُرِئَ « بِأَمْرِ اللَّهِ » بِالْبَاءِ الظَّاهِرَةِ
فِي السَّبِيَةِ . (٤) سُورَةُ الرَّعْدِ آيَةٌ ١١ » . (٥) وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ
أَبِي الدُّنْيَا وَغَيْرُهُمْ عَنْ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : لِكُلِّ عَبْدٍ حِفْظَةٌ يَحْفَظُونَهُ : لَا يَرِجُ
عَلَيْهِ حَاطُطٌ ، أَوْ يَتَرَدَّى فِي بُئْرٍ ، أَوْ تَصِيبُهُ دَابَّةٌ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَدْرَ الَّذِي قَدَّرَ لَهُ خَلَّتْ
عَنْهُ الْحِفْظَةُ ، فَأَصَابَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَصِيبَهُ . وَالْمُعَقَّبَاتُ غَيْرُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ
ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : « وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْلَمُونَ »
فَإِنْ هُوَ لَمْ يَكُنْ مَوْلُودًا يَأْخُصُّهُ عَمَلُ الْعَبْدِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ . وَالْعَبْدُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ
يَحْفَظُونَهُ عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْحَذَرِ عَنِ ارْتِكَابِ الْعَاصِي ، وَأَشَدَّ رَغْبَةً فِي الْإِكْتِسَابِ
مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَمِنْ شَوَاهِدِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ » الْآيَةُ ، مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أُرَيْدَ بْنَ قَيْسٍ ، وَعَامِرَ بْنَ الطَّقِيلِ ، قَدِمَا الْمَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاتَّبَعَا إِلَيْهِ ، وَجَلَسَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ عَامِرٌ : مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ أَسْلَمْتُ ؟ !!!
قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ . قَالَ : أَتَجْعَلُ لِي إِنْ
أَسْلَمْتُ الْأَمْرَ بَعْدَكَ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ ، وَلَا لِقَوْمِكَ ، وَلَكِنْ
لَكَ أَعْنَةُ الْحَيْلِ ، قَالَ : « فَاجْعَلْ لِي الْوَبْرَ وَلَكَ الْمَدْرَ » ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا .
فَلَمَّا قُتِلَ مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ : لِأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْكَ حَيْلًا وَرَجُلًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
يَنْعَكَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَلَمَّا خَرَجَا ، قَالَ عَامِرٌ يَا أُرَيْدَ إِنِّي سَأَلْتُ مُحَمَّدًا عَنْكَ بِالْحَدِيثِ ،

وقال مجاهد^(١): ما من عبد إلا له مَلَكٌ يحفظه في نومه ، ويقظته ، من الجن ، والإنس ، والهوام ؛ فما من شيء يأتيه إلا قال : وراءك^(٢) ، إلا شيئاً قد أذن الله فيه ، فيصيبه .

ومن حفظ الله للعبد أن يحفظه في صحة بدنه ، وقوته ، وعقله ، وماله . قال بعض السلف : « العالم لا يحزن »^(٣) .

وقال بعضهم : مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ مُتَّعَ بِعَقْلِهِ^(٤) ، وتأول ذلك بعضهم على قوله تعالى : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »^(٥) .

= فاضربه بالسيف ، فإن الناس إذا قتلته لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ، وبكرهوا الحرب ، فسنعطيهم الدية ، فقال أربد : أفعل ، فأقبلا راجعين . فقال عامر : يا محمد قم معي أكلك ، فقام عليه الصلاة والسلام معه فوقفا إلى الجدار وجعل عامر يكلمه ، وسل أربد السيف ، فلما وضع يده عليه بيست على قائمه ، فلم يستطع سله ، وأبطأ على عامر ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يضع ، فانصرف عنها ، وقال عامر لأربد : مالك ؟ قال وضعت يدي على قائم سيفي فيبست ، فلما خرجا حتى إذا كانا بالرقم - نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، فوقع بهما أسيد . قال : اشخصا يا عدوى الله تعالى ، لعنكما الله تعالى . فقال عامر : من هذا يا سعد ؟ فقال : هذا أسيد بن حضير الكتاب . فقال : والله إن كان حضير صديقاً لي ، ثم إن الله سبحانه أرسل على أربد صاعقة قتلته ، وخرج عامر ، حتى إذا كان بوادي الجريد ، أرسل الله عليه قرحة ، فكان يصيح : يا لعامر ، أغدة كندة البعير ، وموت في بيت سلوية !!؟ (١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر الإمام الخبر المكي ، كان عالماً بالتفسير . قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة . ومات بمكة وهو ساجد وهو ابن ثلاث وثمانين سنة . (٢) جاء في اللسان : وقالوا : وراءك ، إذا قلت : انظرا خلقك . (٣) أي لا يعتريه ما يوجب الحزن أصلاً لأن مقصد العالم العامل ليس إلا الله تعالى ، ونيل رضوانه المستلزم للكرامة والرفق ، وأما الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهيات أن تنظم في سلك مقصده وجوداً وعندما حتى يحزن لحصول ضارها أو فوات نافعها . (٤) يعنى من حفظ القرآن ، وعمل به حفظ الله عليه نعمة العقل حتى يموت . (٥) فعن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ثم قرأ : « لقد خلقنا الإنسان =

وكان أبو الطيب الطبري^(١) قد جاوز المائة السنة وهو ممتع بعقله ، وقوته ، فوثب يوماً من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة ، فوثب على ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها من الصغر فحفظها الله علينا في الكبر . وعكس هذا أن الجنيد^(٢) رأى شيخاً يسأل الناس ، فقال : إن هذا ضيَّع الله في صغره ، فضيَّعه الله في كِبَرِهِ .

وقال محمد بن المنكدر^(٣) : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده ، وولد

== في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . قال : لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

(١) هو أبو الطيب الطبري طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري القاضي الفقيه الشافعي ، كان ثقة صادقاً أديباً ورعاً عارفاً بأصول الفقه وفروعه ، محققاً في علمه ، سليم الصدر ، حسن الخلق ، صحيح المذهب ، عاش مائة سنة واثنتين لم يختل عقله ولا تقبر فهمه وله مصنفات كثيرة في العلوم المختلفة وبقى قاضياً حتى توفى ، وكان مولده بأمل سنة ٣٤٨ وتوفى يوم السبت لعشر بقين من ربيع الأول سنة ٤٥٠ ببغداد ودفن بمقبرة باب حرب وصلى عليه في جامع المنصور رحمه الله رحمة واسعة .

(٢) هو شيخ الصوفية تاج العارفين أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري ، أصله من نهاوند ، ونشأ بالعراق . حج على قدميه ثلاثين حجة ومن كلامه : الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار ، ومنه أيضاً : من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله عليه سبعين باباً من التوفيق ، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان من حيث لا يشعر . قال بعض من حضر وفاته : كنت واقفاً على رأس الجنيد وقت وفاته ، وكان يوم جمعة ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت له : يا أبا قاسم ارفق بنفسك ، فقال : أرأيت أحداً أحوج إليه مني في هذا الوقت الذي تطوى فيه صحيفتي ؟ وكان قد ختم القرآن الكريم ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية ، ثم مات رحمه الله . وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين ومائتين . وقبره ببغداد يزار .

(٣) هو السيد الجليل محمد بن المنكدر التيمي المدني القرشي ، سمع أبا هريرة ، وابن عباس ، وجابراً ، وأنساً ، وابن المسيب ، وعدة آخر . قيل له : أي الأعمال أفضل ؟ قال : لإدخال السرور على المؤمنين ، وقيل له : أي الدنيا أحب إليك ؟ قال : الإفضال على الإخوان . وكان إذا حج خرج بنسائه وصبيانهم كلهم ، فقيل له في ذلك ، فقال : أعرضهم على الله ، وكان من أزهد الناس وأعبدهم ، وكان بيته مأوى الصالحين ، ومجتمع العابدين . توفى بالمدينة سنة ثلاثين ومائة .

ولده ، وقريته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ الله
 وستره . وقال ابن المسيب^(١) لابنه : يا بني إني لأزیدن في صلاتي من أجلك
 رجاء أن أُحفظَ فيك ، وتلا هذه الآية : « وكان أبوهما صالحاً » وقال عمر
 ابن عبد العزيز^(٢) رحمه الله : مامن مؤمن يموت إلا حفظه الله تعالى في عقبه
 وعقب عقبه . وقال يحيى بن إسماعيل بن سلمة بن كهيل : كان لي أخت
 أسنُّ مني فاختلطت ، وذهب عقلها ، وتوحشت ، وكانت في غرفة في أقصى
 سطوحنا ، فمكثت بذلك بضع عشرة سنة ، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذا
 بابي يدق نصف الليل . فقلت : من هذا ؟ قالت : كجة^(٣) ، فقلت : أختي ؟
 قالت : أختك ، ففتحت الباب ، فدخلت ، ولا عهد لها بالبيت أكثر من
 عشر سنين ، فقالت : أريتُ الليلة في منامي ، فقيل لي : إن الله حفظ أباك

(١) هو أبو محمد سعيد بن المسيب الخزومي المدني ، أحد أعلام الدنيا ، سيد التابعين ،
 قال علي بن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :
 لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ،
 وعبد الله بن عمرو بن العاص ، صار لفقته في جميع البلدان إلى الموالى : فقيه مكة : عطاء ،
 وفقه اليمن : طاووس ، وفقه اليمامة ، : يحيى بن أبي كثير ، وفقه البصرة : الحسن
 البصري ، وفقه الكوفة : إبراهيم النخعي ، وفقه الشام : مكحول ، وفقه خراسان :
 عطاء الخراساني ، إلا المدينة فإن الله تعالى خرسها بقرشي فقيه غير مدافع : سعيد بن
 المسيب ، جمع بين الحديث والفقہ والتفسير والورع والعبادة ، حج أربعين حجة ، ولم تفته
 تكبيرة الإحرام مع الإمام في الصف الأول خمسين سنة . وكان مولده سنة خمس عشرة ،
 ووفاته بالمدينة سنة أربع وتسعين .

(٢) هو الخليفة العادل أمير المؤمنين ، وخامس الخلفاء الراشدين ، أبو حفص
 عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي ، حفظ القرآن في صغره ، وبعثه أبوه من مصر
 إلى المدينة فتنقه بها حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ، ومدة خلافته سنتان وستة أشهر وأيام
 تكلافة الصديق رضي الله عنها . وتوفي وعمره أربعون سنة بدير سمعان من أرض المعرفة
 سنة إحدى ومائة .

(٣) كجة جاء في اللسان : الكجة بضم الكاف وتشديد الجيم لعبة للصبيان .

إسماعيل لسمة جدك ، وحفظك لأبيك إسماعيل فإن شئت دعوت الله ، فذهب ما بك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة ، فإن أبا بكر وعمر قد شغفا لك إلى الله عز وجل بحب أبيك وجدك إياها ، قتل : فإذا كان لا بد من اختيار أحدهما ، فالصبر على ما أنا فيه والجنة ، وإن الله عز وجل لو اسع بخلقه ، لا يتعاطمه شيء ، إن شاء أن يجمعها لي فعل ، قالت : قليل : فإن الله تعالى قد جمعها لك ، ورضى عن أبيك وجدك ، بجهما أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، قومي فانزلي ، فأذهب الله تعالى ما كان بها .

ومتى كان العبدُ مُستغلاً بطاعة الله فإن الله تعالى يحفظه في تلك الحال ، كما في مسند الإمام أحمد عن حميد بن هلال ^(١) ، عن رجل قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو بربا ^(٢) بيتنا ، فقال : إن امرأة كانت فيه ، فخرجت في سرية ^(٣) من المسلمين ، وتركت اثنتي عشرة عنزاً و صيصيتها ^(٤) قال : ففقدت عنزاً ، و صيصيتها ، فقالت : كانت تنسج بها ، فقالت : يارب إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه ، وإني قد فقدت عنزاً من غنمي ، و صيصيتي ، وإني أنشدك ^(٥) عنزي و صيصيتي . قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شدة مناشدتها ربها تبارك وتعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأصبحت عنزها ومثلها ، و صيصيتها ومثلها ، وهاتيك فأربها إن شئت ^(٦) قال : قتل : بل أصدفك .

(١) حميد بن هلال العدوي أبو نصر البصرى ، ثقة عالم . (٢) ربا جمع ربوة بالضم وفتح : المكان المرتفع من الأرض . (٣) السرية : طائفة من الجيش أقصاها أربعمئة تبعث إلى العدو وجمعها السرايا ، وقد خرجت هذه المرأة مع السرية لمصالح الجند كالتقاية ونحوها . (٤) وهي الصنارة التي ينزل بها وينسج . (٥) أى أسألك درهماً إلى . (٦) خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي يحدثه أن يسأل المرأة إن شاء عن هذا الشأن .

وكان شيبان الراعي يرعى غنما ، فإذا جاءت الجمعة ، حَطَّ عليها خطا ،
وذهب إلى الجمعة ، ثم يرجع وهي كما تركها .

وكان بعض السلف بيده الميزان يزن بها دراهم ، فسمع الأذان ، فنهض
ونفضها^(١) على الأرض ، وذهب إلى الصلاة ، فلما عاد جمعها ، فلم يذهب
منها شيء .

ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه في دنياه أن يحفظه من شر كل من
يريد بأذى من الجن والإنس ، كما قال تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجاً^(٢) . قالت عائشة^(٣) رضي الله عنها : يكفيه غمَّ الدنيا وهما .

وقال الربيع بن خيثم : يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس .
وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية^(٤) : إن اتقيت الله كفالك
الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً .

(١) ألقاها ورعى بها وفيه إشارة إلى حرصه على إدراك الصلاة وعدم اهتمامه بالدرهم
(٢) سورة الطلاق آية (٢) والمعنى ومن يمثل ما أمره الله به ، ويجنب ما نهاه الله عنه
يجعل له مخرجاً من هموم الدنيا وأهوال الآخرة . وعن ابن عباس قال : قرأ رسول الله
صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » فقال : مخرجاً من
شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة . (٣) هي الصديقة بنت
الصديق ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهي ابنة ست ، وبنى بها بالمدينة
وهي بنت تسع ، ولم يتزوج بغيرها ، وتوفى عنها ، وهي بنت ثمانى عمرة سنة ،
وكانت من أكثر الصحابة حفظاً وفتياً . قال مسروق : لقد رأيت مشيخة أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض ، وقال عروة بن الزبير : ما جالست
أحداً قط أعلم بقضاء ، ولا بحديث بالجاهلية ، ولا أروى للشعر ، ولا أعلم بفريضة ،
ولا طب من عائشة رضي الله عنها . وتوفيت سنة سبع وخمسين في رمضان عن
خمس وستين سنة ودفنت بالبقيع رضي الله عنها . (٤) معاوية بن أبي سفيان كان من
دهاة العرب وحلمائها ، وهو أحد كتبة الوحي ، ولى الشام لعمر وعثمان عشرين سنة ،
وتملكها بعد على عشرين سنة إلا شهراً ، وتوفى بدمشق في رجب سنة ستين ، وله
ثمان وسبعون سنة .

وكتب بعض الخلفاء إلى الحكم بن عمرو الغفاري كتاباً يأمره فيه بأمر
يخالف كتاب الله ، فكتب إليه الحكم : إني نظرت في كتاب الله فوجدته
قبّل كتاب أمير المؤمنين ، وإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً^(١)
على امرئ ، فاتق الله عز وجل — جعل له مخرجاً والسلام .

وكتب وأنشد بعضهم :

بِتَقْوَى الْإِلَهِ نَجَا مِنْ نَجَا وَفَازَ وَصَارَ إِلَى مَارِجَا

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ — كَمَا قَالَ — مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا

كتب بعض السلف إلى أخيه : أما بعد فإنه من اتقى الله فقد حفظ
نفسه ، ومن ضيع تقواه ، فقد ضيع نفسه ، والله الغني عنه .

ومن عجيب حفظ الله تعالى لمن حفظه — أن يجعل الحيوانات المؤذية
بالطبع حافظةً له من الأذى ، وساعيةً في مصالحه ؛ كما جرى لسفينة^(٢)
مولى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث كسره المركب ، وخرج إلى جزيرة ،
فراى السبع فقال : يا أبا الحارث^(٣) أنا سفينة مولى النبي صلى الله عليه وسلم ؛

(١) رتقاً أى ملتحمين لا انفراج فيهما .

(٢) هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من فارس ، فاشترته أم سلمة
ثم أعتقته واشترطت عليه أن يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم وعن أم سلمة وعلي ، وروى عنه غيره ، ومن رواية محمد بن المنكدر عنه
أنه قال : ركبت سفينة فأنكسرت ، فركبت لوحاً منها ، فطرحني إلى الساحل ، فلقيني
أسد ، فقلت : يا أبا الحارث ، أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فظأطأ
رأسه ، وجعل يدفعني بجنبه ، أو بكفه حتى وقفني على الطريق ، فلما وقفني على الطريق
همهم فظننت أنه يودعني . وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة . وهو الذي روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث : الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك .
(٣) كنية السبع .

فجعل يمشى حوله، ويدلُّه على الطريق، حتى أوقفه عليها، ثم جعل يهيمهم^(١)
كأنه يودعه، وانصرف عنه.

وكان أبو إبراهيم السامح، قد مرض في بَرِّيَّةٍ بقرب دير فقال:
لو كنتُ عند باب الدير لنزل الرهبان فعالجوني، فجاء السبع، فاحتمله على
ظهره، حتى وضعه على باب الدير، فرآه الرهبان، فأسلموا، وكانوا أربعائة.
وكان إبراهيم بن آدم نائمًا في بستان، وعنده حية، في فيها طاقة نرجس،
فما زالت تذب عنه الذباب حتى استيقظ. فَمَنْ حَفِظَ اللَّهَ حَفِظَهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ
المؤذية بالطبع، وجعل تلك الحيوانات حافظةً له، ومن ضَيَّعَ اللَّهَ ضَيَّعَهُ اللَّهُ
بين خلقه؛ حتى يدخل عليه الضررُ ممن كان يرجو أن ينفعه، ويصير
أَخَصُّ أَهْلِهِ بِهِ، وَأَرْقَمَهُمْ بِهِ يُؤْذِيهِ. كما قال بعضهم: إني لأعصى الله فأعرف
ذلك في خلق خادمي، وحماري: يعني أن خادمه يَسُوءُ خَلْقَهُ عَلَيْهِ،
ولا يطيعه، وحماره يَسْتَعصِي عليه، فلا يُؤَاتِيهِ لِرُكُوبِهِ.

فالخير كله مجموع في طاعة الله والإقبال عليه والشر كله مجموع
في معصية الله والإعراض عنه.

قال بعض العارفين: مَنْ فَارَقَ سُدَّةَ^(٢) سَيِّدِهِ لَمْ يَجِدْ لِقَدَمِيهِ
قراراً أبداً.

وَاللَّهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِراً إِلَّا وَجَدْتُ الْأَرْضَ تَطْوِي لِي
وَلَا تَنْتَبِئُ الْعَزَمَ عَنْ بَابِكُمْ إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

(١) المهمة: ترديد الصوت في الصدر.
(٢) السدة: الباب والجمع سدود ككفرة وغرف.

النوع الثاني من الحفظ — وهو أشرفها وأفضلها — حفظ الله تعالى لعبده في دينه: فيحفظ عليه دينه، وإيمانه في حياته من الشبهات المُرَدِيَّةِ^(١)، والبدع المِضَلَّةِ^(٢). والشهواتِ المحرَّمة؛ ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإسلام. قال الحكم بن أبان عن أبي مكى: إذا حضر الرجل الموتُ يقال للملك: شمَّ^(٣) رأسه. قال: أجد في رأسه القرآن. قال: شمَّ قلبه. قال: أجد في قلبه الصيام. قال: شمَّ قدميه. قال: أجد في قدميه القيام. قال: حَفِظَ نفسه، فحفظه الله عز وجل. خرَّجه ابن أبي الدنيا. وقد ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب^(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه أن يقول عند منامه: اللهم إن قبضت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.

وفي حديث عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه علمه أن يقول: اللهم احفظنى بالإسلام قائماً، واحفظنى بالإسلام قاعداً، واحفظنى بالإسلام راقداً، ولا تطع في عدواً ولا حاسداً. خرَّجه ابن حبان في صحيحه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ودع من يريد السفر يقول له: أستودعُ الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك. وفي رواية: وكان يقول: إنَّ الله إذا استودعَ شيئاً حفظه. خرَّجه النسائي وغيره.

(١) المهلكة. (٢) التي تحول بين العبد وبين الهداية. (٣) فعل أمر من شممت الشيء أشمته من باب تمع، وشممته شماً من باب قتل لغة أه مصباح. (٤) أبو عمار البراء ابن عازب الأنصاري الحارثي نزيل الكوفة، كان من أقران ابن عمر، استصفر يوم بدر، له حديث واحد عن أبي بكر رضى الله عنه وهو من المكثرين من رواية الحديث، ومروياته خمسة وثلاثون حديث. توفي سنة اثنتين وسبعين رضى الله عنه.

وخرَّج الطبراني حديثاً مرفوعاً: إنَّ العبدَ إذا صَلَّى الصلَاةَ على وجهها
صعدت إلى الله ولها برهانٌ كبرهان الشمس ، وتقول لصاحبها: حفظك الله
كما حفظتني ، وإذا ضيَّعها لفتَّ كما يُلَفُّ الثوبُ الخلقُ ، ثم يُضْرَبُ بها
وجهُ صاحبها ، وتقول : ضيَّعك اللهُ كما ضيَّعتني (١) .

وكان عمر رضى الله عنه يقول فى خطبته : اللهم أعصمنا بحفظك .
وثبتنا على أمرك .

ودعا رجلٌ لبعض السلف بأن يحفظه الله ، فقال : يا أخى لا تسألُ
عن حفظه ، ولكن قلْ يحفظُ الإيمان . يعنى أن المهم هو الدعاء بحفظ
الدين ، فإن الحفظَ الدينوى قد يشترك فيه البرُّ والفاجر (٢) ، فالله يحفظ على
المؤمن دينه ، ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد
ببعضها ، وقد يكون يكرهه . وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام .
قال تعالى : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا
الخلصين » (٣) . فمن أخلص لله حلَّصه الله من السوء ، والفحشاء ، وعصمه
منها من حيث لا يشعر ، وحال بينه وبين أسباب المعاصى المهلكة . كما رأى

(١) وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « من صلى الصلوات لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وآتم لها قيامها ، وخشوعها ،
وركوعها ، وسجودها — خرجت وهى بيضاء مسفرة تقول : حفظك الله كما حفظتني .
ومن صلاها لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ،
ولا سجودها ، خرجت وهى سوداء مظلمة تقول : ضيَّعك اللهُ كما ضيَّعتني ، حتى إذا كانت
حيث شاء الله ، لفت كما يُلَفُّ الثوب الخلق ، ثم ضرب بها وجهه ، رواه الطبراني
فى الأوسط . والثوب الخلق : الممزق ، وذلك كناية عن عدم قبول الصلَاة .
(٢) ومصداق ذلك من السنة قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يعطى الدنيا من
يجب ومن لا يجب ، ولا يعطى الدين إلا من يجب . (٣) سورة يوسف آية (٢٤) .

معروف الكرخي^(١) شبابا يتهاونون في الخروج إلى القتال في فتنة ،
فقال : اللهم احفظهم ، قيل له : تدعو لهؤلاء ؟ فقال : إن حفظهم لم
يخرجوا إلى القتال .

وسمع عمر رجلا يقول : اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه ، فحل بيني
و بين معاصيك ، فأعجب عمر ودعا له بخير .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : « يحول بين المرء
وقلبه^(٢) » قال : يحول بين المؤمن و بين المعصية التي تجره إلى النار .

حجَّ بعض المتقدمين فبات بمكة مع قوم ، فهم بمعصية ، فسمع هاتفاً
يهتف يقول : « ويلك ألم تحجَّ ؟ فعصمه الله مما همَّ به .

وخرج بعضهم مع رفقة إلى معصية ، فلما همَّ بمواقعتها ؛ هتف به
هاتف : « كلُّ نفس بما كسبت رهينة^(٣) » فتركها .

(١) القدوة الزاهد معروف الكرخي ، أبو محفوظ ، صاحب الأحوال والكرامات
كان من موالى على بن موسى الرضى ، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى المؤدب ، فقال له :
إن الله ثالث ثلاثة ، فقال : بل هو الله أحد ، فضربه ، فهرب وأسلم على يد على بن موسى
الرضي ، ورجع إلى أبيه فألمأ ، واشتهرت بركاته ، وإجابة دعوته . وكان من
المحدثين . ومن كلامه : علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه ؛
وقال : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ،
وارتجاء رحمة من لا يطاق جهل وحق . توفي رحمه الله سنة مائتين . (٢) سورة الأنفال
آية (٢٤) وهو لإخبار من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم
وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر أحد منهم أن يدرك بقلبه شيئاً من إيمان أو كفر أو
طاعة أو معصية إلا بإذنه تعالى ومشيئته . عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سألت
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إكثاره الدعاء « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي
على دينك » فقال : يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله تعالى ،
فن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ . (٣) سورة المدثر آية (٣٨) والمعنى : إن كل نفس مرهونة
عند الله تعالى بكسبها ، مجزية بما عملت إلا أصحاب اليمين وهم المسلمون المخلصون الذين
فكروا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الرهنه بأداء دينه .

ودخل رجل غَيِضَةً^(١) ذات شجر ، فقال : لو خلوتُ ههنا بمعصيةٍ
من كان يراني ؟ فسمع صوتاً ملاً ما بين حافتي الغيضة : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ^(٢) » ؟ !!!

وَهَمَّ^(٣) رجلٌ بمعصية فخرج إليها ، فر في طريقه بقاصٍ يقصُّ^(٤)
على الناس ، فوقف على حَلَقَتِهِ^(٥) ، فسمعه يقول : أيها الهامَّ بالمعصية !
أما علمت أن خالقَ الممَّةِ مطلعٌ على همتك ؟ فوقع مغشياً عليه^(٦) ،
فما أفاق إلا من توبة .

كان بعض الملوك الصالحين قد تعلق قلبه بمملوك له جميل ، فحشى
على نفسه ، فقام ليلة فاستغاث الله ، ففرض المملوك من ليلته ، ومات
بعد ثلاث .

ومنهم من عصم نفسه بموعظة جرت على لسان من أراد منه الموافقة
على المعصية ، كما جرى لأحد الثلاثة الذين دخلوا الغار ، وانطبقت عليهم
الصخرة ، فإنه لما جلس من تلك المرأة مجلس الرجل من امرأته قالت له :
يا عبد الله ! اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها^(٧) .

(١) الغيضة الشجر المنف وجمع الماء وهو المراد هنا . (٢) سورة الملك آية (١٤)
(٣) همَّ بالشيء هما من باب قبل إذا أَرَادَهُ ولم يفعله . (٤) درسه . (٥) تمطلت قواه
وحواسه من شدة تأثره بالموعظة . (٦) وقصة ماجرى له أن امرأة نزلت بها ضائقة
شديدة ، وأدركتها الفاقة والقر ، فذهبت إلى هذا الرجل وكان ابن عمها تطلب
معروفه ، وكان غنياً فأبى أن يعطيها شيئاً حتى تتمكن من نفسها ، وترددت عليه ثلاث
مرات ترجو بره وهو يمتنع عن مساعدتها ، ولم تجد بداً في المرة الثالثة من إجابته إلى
ما طلب إبقاء على أولادها الذين يعالجون الرمق الأخير من شدة الجوع . فلما قرب منها ،
وكشف عن ساقها ارتعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أخاف الله رب العالمين ،
فقام عنها وهو أشد ما يكون إشفافاً عليها وتأثراً من قولها وقال : أتخافين ربك
في الشدة ولا أخافه في الرخاء ؟ ! ! وترك لها من الذهب ما يفتنيها ابتغاء وجه الله تعالى .

وكذلك الكِفْل^(١) من بنى إسرائيل ، كان لا يتورع عن معصية ، فأعجبتَه امرأةٌ ، فأعطاها ستين دينارا ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، ارتعدت ، فقال : أَكْرَهْتُكَ ؟ قالت : لا ، ولكن عملتُ ما عملتُه قط ، وإنما حملني عليه الحاجةُ ، فقال : تخافين الله ولا أخافه !! ثم قام عنها ، ووهب لها الدنانير ، وقال : والله لا يعصى الله الكفلُ أبداً ، ومات من ليلته ، فأصبح ، مكتوباً على بابه ، قد غفر الله للكفل . خرج الإمام أحمد والترمذي حديثه هذا من حديث ابن عمر مرفوعاً .

ورأود رجلٌ امرأةً عن نفسها ، وأمرها بفتح الأبوابِ ففعلتُ ، وقالت له قد بقي بابٌ واحدٌ . قال : أيُّ بابٍ ؟ قالت : البابُ الذي بيننا وبين الله تعالى ، فلم يتعرض لها .

ورأود رجلٌ أعرابيةً ، وقال لها ما يرانا إلا الكواكبُ . قالت : فأينُ مَكُونُكِهنا ؟ وهذا كله من ألطافِ الله تعالى ، وحِيلُولَتِهِ بين العبدِ ومعصيته .

قال الحسن^(٢) وذَكَرَ أهلَ المعاصي — : هانوا عليه فعصوه ، ولو عرُّوا عليه لعصمهم .

(١) الكفل بكسر الكاف اسم رجل وأصله في اللغة الحظ والنصيب ومع أن هذا الرجل كان لا يتورع عن مقارفة المعاصي ، فقد أدركته عناية الله تعالى ، فقبل توبته ، وغفر له حوبته ، لكي يعرف الملائة من بنى إسرائيل عناية الله بالمذنبين ، إذا أتوا تادمين مخلصين . وفي الحديث الصحيح إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . أخرجه مسلم .

(٢) الحسن بن أبي الحسن البصرى أبو سعيد إمام أهل البصرة ، وخير أهل زمانه ، ولد لستين بقتا من خلافة عمر ، وكان جميلاً فصيحاً . قال أبو عمرو بن العلاء : =

وقال بشر^(١) : ما أصرَّ على معصية الله كريم ، ولا آثر الدنيا على الآخرة حلیم .

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه ، أنَّ العبدَ قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا : إمَّا الولاياتُ ، أو التجارات ، أو غير ذلك ؛ فيحول الله بينه وبين ما أَراده ، لما يعلم له من الخير في ذلك ، وهو لا يشعر ، مع كراهته لذلك .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : إنَّ العبدَ لَيَهْمُ بالأمر من التجارة أو الإمارة ، فينظر الله إليه ، فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإني إن

ما رأيت أفصح من الحسن والحجاج ، قيل : ولا أشعر من رؤبة والعجاج . وقال ابن سعد في طبقاته : كان جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيما ه . ولما ولي ابن هبيرة العراق وخراسان نيابة عن يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن ، وابن سيرين ، والشعبي ، وذلك في سنة ١٠٣ فقال لهم : إن الخليفة كتب إلى بأمر يخالف كتاب الله . فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه بعض تقية . فقال : ما تقول يا حسن ؟ قال : يا ابن هبيرة ؟ خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، فإن الله يمنعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله ، ويوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عمالك ، يا ابن هبيرة : إياك أن تعصى الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله تعالى وعباده ، فلا تترك دين الله وعباده لهذا السلطان ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وله مع الحجاج وقعات هائلة وسلمه الله من شره ، وربما حضر مجلسه فلم يقم له ، ولم يغير كلامه الذي هو فيه . توفي سنة عشر ومائة ، ولما شيع الناس جنازته لم تقم صلاة العصر في الجامع ، ولم يحدث مثل ذلك منذ قام الإسلام رحمه الله تعالى ورضى عنه . (١) يظهر أنه بشر الحافي وهو أبو نصر بشر بن الحارث المروزي الزاهد عاش خمساً وسبعين سنة وتوفي ببغداد في ربيع الأول سنة ٢٢٧ وكان رحمه الله ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد وتفرد بوفور العقل ، وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، وعزوف النفس ، وإسقاط التكلف والفضول . ومن كلامه : الفكرة في أمر الآخرة تقطع حب الدنيا ، وتذهب شهواتها .

يَسْرَتُهُ لَهُ أَدْخَلْتُهُ النَّارَ ؛ فَيَصْرِفُهُ اللَّهُ عَنْهُ ، فَيَظْلُ وَيَطِيرُ : يقول : سبقني فلان ، دهاني فلان . وما هو إلا فضل الله عز وجل .

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات ، ولا يكون فيه خير ، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر .

وخرج الطبراني وغيره حديث أنس^(١) مرفوعاً ، يقول الله عز وجل :
إِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصَلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَأَسْفَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصَلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتَهُ لَأَسْفَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصَلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصَّحَّةُ ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَسْفَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصَلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقْمُ وَلَوْ أَصْحَمْتَهُ لَأَسْفَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ يُطَلَبُ بَاباً مِنَ الْعِبَادَةِ ، فَأَكْفَهُ عَنْهُ كَيْ لَا يَدْخُلَهُ الْعُجْبُ .
إِنِّي أَدَبُّرُ عِبَادِي بَعْلَى بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

كان بعض المتقدمين يكثر سؤال الشهادة ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أسرت ، وإن أسرت تنصرت ، فكف عن سؤاله .
وفي الجملة فمن حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه تولى الله حفظه في أمور دينه ودينه ، وفي دنياه وآخرته .

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ولي المؤمنين ، وأنه يتولى الصالحين ،

(١) هو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري النجاري خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من سادات الصحابة ، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة المال والولد والبركة فيهما فدفن من أولاده لصلبه مائة وعشرين ، وكان نخله يثمر في العام مرتين ، وكان من المكثرين من رواية الحديث ، ومروياته ٢٢٧٦ حديثاً ، سكن البصرة من خلافة عمر لينفق الناس ، ومات بها وعمره ثلاث ومائة سنة وكانت وفاته رضى الله عنه سنة ٩٣ .

وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة ، ولا يكلفهم إلى غيره .
 قال تعالى : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ^(١) » .
 وقال تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ^(٢) » . وقال تعالى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ^(٣) » . وقال
 تعالى : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ^(٤) » ؟

فمن قام بحقوق الله عليه فإن الله يتكفل له بالقيام بجميع مصالحه في
 الدنيا والآخرة . فمن أراد أن يتولى الله حفظه ، ورعايته في أموره كلها
 فليراعى حقوق الله عليه ، ومن أراد ألا يصيبه شيء مما يكره ، فلا يأت
 شيئاً مما يكرهه الله .

كان بعض السلف يدور على المجالس ويقول : من أحب أن تدوم
 له العافية فليتق الله .

وقال العمري الزاهد لمن طلب منه الوصية : كما تحب أن يكون
 الله لك فهكذا كن لله عز وجل .

وفي بعض الآثار : يقول الله : وعزتي وجلالي لأطّلع على قلب عبد ،
 فأعلم أن الغالب عليه حبُّ التمسك بطاعتي إلا تولّيت سياسته وتقويمه .
 وفي بعض الكتب المتقدمة : يقول الله عز وجل : ابن آدم !
 ألا تعلمني ما يضحكك ^(٥) ؟ يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت . والمعنى :
 أنك إذا قت بما عليك من حقوق التقوى ، فلا تهتم بعد ذلك بمصالحك ،

(١) سورة البقرة آية (٢٥٧) . (٢) سورة محمد آية (١١) . (٣) سورة
 الطلاق آية (٣) . (٤) سورة الزمر آية (٣٦) . (٥) الاستفهام غير حقيق .

فإن الله هو أعلم بها منك ، وهو يوصلها إليك على أتم الوجوه من غير اهتمام منك بها .

وفي حديث جابر رضى الله عنه : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه .

فهذا يدل على أنه على قدر اهتمام العبد بحقوق الله ، ومراعاة حدوده ، واعتناؤه بذلك ، وحفظه له — يكون اعتناؤه به ، وحفظه له . فمن كان غاية همه ، رضا الله عنه ، وطلب قربه ، ومعرفة ، ومحبته ، وخدمته ، فإن الله يكون له على حسب ذلك ، كما قال تعالى : « فَأَذْكُرُونِي أَنْ ذُكِرْتُمْ ^(١) » « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ^(٢) » . بل هو سبحانه أكرم الأكرمين ، فهو يجازى بالحسنة عشرةا ويزيد « ومن تقرب منه شيراً تقرب منه ذراعاً ، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً ، ومن أتاه يمشى أتاه هرولة » ما يؤتى الإنسان إلا من قبل نفسه ، ولا يصيبه المكروه إلا من تفریطه في حق ربه عز وجل .

قال على رضى الله عنه : لا يرْجُونَ عَبْدُ إِلَّا رَبَّهُ ، ولا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ ، وقال بعضهم : من صفا صُفَى له ، ومن خلط خلط عليه .
وقال مسروق : من راقب الله في خطرات قلبه ، عصمه الله في حركات جوارحه .

وَبَسْطُ هَذَا الْمَعْنَى يَطْوِلُ جَدًّا ، وفيما أشرنا إليه كفاية . والله الحمد .

(١) سورة البقرة آية (١٥٢) . (٢) سورة البقرة آية (٤٠)

وقوله صلى الله عليه وسلم : « تجذّه أَمَامَكَ » وفي رواية أخرى « تجاهك » — معناه أن مَنْ حَفِظَ حدودَ الله ، وراعى حقوقه ، وجدَّ الله معه في جميع الأحوال : يحوطه ، وينصره ، ويحفظه ويؤفقه ويؤيده ، ويُسدِّده ؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو تعالى — مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال قتادة : ومن يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئمة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادى الذي لا يضل .
كتب بعض السلف إلى أخ له : « أما بعد » إن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟ والسلام .

وهذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ^(١) » وقوله : « وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ^(٢) » فإن المعية الخاصة تقتضى النصر ، والتأييد ، والحفظ ، والإعانة ؛ كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ^(٣) » وقوله تعالى : « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ^(٤) » وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لأبي بكر الصديق رضى الله عنه في تلك الحال : مَا ظَنُّكَ بِأَبْنِ اللَّهِ تَالِئِهِمَا ؟ فهذا غير المعنى المذكور في قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ

(١) سورة الحديد آية (٤) . (٢) سورة النساء آية (١٠٨) . (٣) سورة طه

آية (٤٦) . (٤) سورة التوبة آية (٤٠) .

وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا^(١)» الآية - فإن ذلك عام لكل جماعة .
 ومن هذا المعنى الخاص - الحديث الإلهي ؛ وقوله فيه : « ولا يزال
 عبدى يتقربُ إلىَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّهُ ، فإذا أُحِبَبْتُهُ كنتُ سمعَهُ الذى
 يسمع به ، وبصرَهُ الذى يبصرُ به ، ويده التى يَبِطِشُ بها ، وَرِجْلَهُ التى
 يَمْشَى بها^(٢) » إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على
 قُرْبِ الرَّبِّ سبحانه من أطاعه واتقاه ، وحفظ حدوده ورعاه .

دخل بَنَانُ الحِمَالُ البَرِّيَّةَ على طريقِ تبوك^(٣) ، فاستوحش ، فهتف به
 هاتف : لِمَ تَسْتَوْحِشُ ؟ أليس حبيبك معك ؟ !!! فمن حفظ الله وراعى
 حقوقه ، وجده أمامه ، وتجاهه على كل حال فليستأنس به ، وليستغفِر
 به عن خلقه .

وفى الحديث : أفضلُ الإيمانِ أن يعلم العبدُ أَنَّ اللهَ معه حيث كان .
 خرج الطبرانى وغيره . وَبَسَطَ هذا القولَ يُطَوِّلُ جداً .
 كان بعض العلماء الربانيين^(٤) كثير السفر وحده ، فخرج الناس مرة
 معه ، يودعونهُ ، فردهم وأنشد :

(١) سورة المجادلة آية (٧) . (٢) من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة
 رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قال : من عادى
 لى ولياً فقد آذنته (أعلمته) بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته
 عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أُحِبَّهُ ، فإذا أُحِبَبْتُهُ كنتُ سمعَهُ الذى
 يسمع به ، وبصرَهُ الذى يبصرُ به ، ويده التى يَبِطِشُ بها ، وَرِجْلَهُ التى يَمْشَى بها ، ولئن
 سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه . وهذا الحديث أشرف حديث فى ذكر الأولياء .
 (٣) تبوك بالفتح ثم الضم وواو ساكنة وكاف ، من أرض الشام ، وقعت بها آخر غزوة
 غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر فيها من غير حرب . وبين تبوك وبين المدينة
 اثنتا عشرة مرحلة . (٤) جمع ربانى وهو العارف بالله عز وجل ، منسوب إلى الرب
 أى الله تعالى .

إِذَا نَحْنُ أَدْجَلْنَا^(١) وَأَنْتَ أَمَامَنَا كَفِي لِمَطَايَانَا^(٢) بِذِكْرِكَ هَادِيَا
وَكَانَ الشُّبْلِيَّ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ ، وَرَبَّمَا قَطَعَ مَجْلِسُهُ عَلَيْهِ .

* * *

قوله صلى الله عليه وسلم : « تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ »
المعنى : أن العبد إذا اتقى الله ، وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه في حال
رخائه وصحته ، فقد تعرف بذلك إلى الله ، وكان بينه وبينه معرفة ، فعرفه
ربه في الشدة ، وعرف له عمله في الرخاء ، فنجَّاه من الشدائد بتلك المعرفة .
وهذه أيضاً معرفة خاصة تقتضى القرب من الله عز وجل ، ومحبتة لعبده ،
وإجابته لدعائه . وليس المراد بها المعرفة العامة ، فإن الله لا يخفى عليه حال
أحد من خلقه ، كما قال تعالى : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ^(٣) » وقال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمُهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ^(٤) » .

وهذا التعرف الخاص هو المشار إليه في الحديث الإلهي : وَلَا يَزَالُ
عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَلَئِنْ سَأَلْتَنِي لِأَعْظِيئِهِ ،
وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ .

اجتمع الفضيل بشعوانة العابدة ، فسألها الدعاء ، فقالت : يا فضيل
وما يدينك وبينه؟ إن دعوته أجايبك ، فشيق^(٥) الفضيل شهقة خرمغشياً عليه .
وقال أبو جعفر السامح : أتى الحسن إلى حبيب أبي محمد هارباً من

(١) أدلج إدلاجاً مثل أكرم إكراماً : سار الليل كله . (٢) المطا وزان العصا :
الظهر ومنه قيل للبعير مطية لأنه يركب مطاه . (٣) سورة النجم آية (٣٢) . (٤) سورة
ق آية (١٦) . (٥) تردد البكاء في صدره .

الحَجَّاج ، نقال : يا أبا محمد احفظني من الشَّرَط^(١) ، هم على أترى^(٢) .
 فقال يا أبا سعيد : أليس بينك وبينه من الثقة ماتدعوه ، فيسترك من هؤلاء ؟
 ادخل البيت . فدخل الشَّرَطُ على أثره فلم يروه ، فذكروا ذلك للحجاج ،
 فقال : بل كان في بيته إلا أن الله طمس على أعينهم فلم يروه .

ومتى حصل هذا التعرّف الخاص للعبد ، حصل للعبد معرفة خاصة بربه
 توجب له الأنس به ، والحياء منه ، وهذه معرفة خاصة غير معرفة المؤمنين
 العامة ، ومدارُ العارفين كلهم على هذه المعرفة ، وهذا التعرّف ، وإشاراتهم
 تومىء إلى هذا ؟

سمع أبو سليمان رجلاً يقول : سهرت البارحة في ذكر النساء ، فقال :
 وَيْحَكَ^(٣) !!! أما تستحي منه يراك ساهراً في ذكر غيره ؟ ولكن كيف
 تستحي ممن لا تعرف ؟

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي : أَحِبُّ الْأُمُوتَ حَتَّى أَعْرِفَ مَوْلَايَ
 وليس معرفته الإقرار به ، ولكن المعرفة الذي إذا عرفته استحيت منه .
 وهذه المعرفة الخاصة ، والتعرف الخاص ، توجب طمأنينة العبد بربه ، وثقته
 به ، في إنجائه من كل شدة وكرب ، وتوجب استجابة الرب دعاء عبده .
 لما اختفى الحسن البصرى من الحجَّاج ، قيل له : لو خرجت من
 البصرة فإننا نخاف أن يُدَلَّ عليك ! فبكى ، ثم قال : أخرج من مصرى ،

(١) جمع شرطة بضم الشين وإسكان الراء وفتح الطاء : طائفة من أعوان الولاة ،
 سمو بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها .
 (٢) خرج في أثره بكسر الهمزة وسكون اللثة وأثره بفتح الهمزة وفتح المثناة : بعده .
 (٣) كلمة رحمة .

وأهلى ، وإخواني ؟!!! إن معرفتي بربي ، وبنعمته على تدلني على أنه سينجيني ، ويخلصني منه إن شاء الله تعالى ، فما ضرَّه الحجاجُ بشيء ، ولقد كان يكرمه بعد ذلك إكراماً شديداً .

وقال رجل لمعروف : ما الذي هيَّجك على الانقطاع والعبادة ؟ ذكر الموت ، والبرزخ ، والجنة ، والنار ؟ فقال معروف : أى شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن كانت بينك وبينه معرفةٌ كفاك جميع هذا .

ومما يبين هذا ويوضحه الحديث الذي خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ سَرَّه أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَلْيُكْثِرِ الدَّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ .

وخرَّج ابن أبي الدنيا ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وغيرهم من حديث يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه ؛ أن يونس عليه السلام لما دعا في بطن الحوت ، قالت الملائكة : يارب ! هذا صوت معروف في بلاد غريبة فقال الله : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ ، ودعوة مستجابة ؟!!! قال : نعم . قالوا : يارب ! أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟! قال : بلى ، فأمر الله الحوت فطرحة بالعرء^(١) .

وقال الضحاك بن قيس : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، إن يونس عليه السلام كان يذكركم الله ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى :

(١) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء .

« فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ^(١) .
 وإن فرعون كان طاعياً ، ناسياً لذكر الله ، فلَمَّا أذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ ،
 فقال الله تعالى : « آ لآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمَفْسِدِينَ ^(٢) » .
 وقال رشدين بن سعد : قال رجل لأبي الدرداء رضى الله عنه : أوْصِنِي ،
 فقال : أذكر الله في السَّراء ^(٣) يذكرك في الضَّراء ^(٤) فنزلت به ضراء ،
 فدعا الله عز وجل ، فقالت الملائكة : صوتٌ معروف ، فشفعوا له . وإذا
 كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء ، فدعا الله عز وجل — قالت
 الملائكة : صوت ليس بمرحوف ، فلا يشفعون له . وحديث الثلاثة الذين
 دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة يشهد لهذا أيضاً ، فإن الله فرج عنهم
 بدعائهم بما كان سبق منهم من الأعمال الصالحة الخالصة في حال الرخاء :
 من بر الوالدين ، وترك الفجور ، وأداء الأمانة الخفية . فإذا علم أن التعرف
 إلى الله تعالى في الرخاء يوجب معرفة الله لعبده في الشدة ، فلا شدة يلقاها
 العبد في الدنيا أعظم من شدة الموت ، وهي أهون مما بعدها إن لم يكن مصير
 العبد إلى خير ، وإن كان مصيره إلى خير فهي آخرُ شدة يلقاها ، فالواجب
 على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة ، والمبادرة إلى ذلك ،

(١) سورة الصافات آية (١٤٣ و ١٤٤) استشهد المصنف بالآية يفيد أن يونس عليه السلام كان كثير التسييح قبل التمام الحوت إياه أيام الرخاء ، وقال بعضهم إن تسييحه كان في بطن الحوت وهو ما ذكره الله تعالى في قوله : « فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » . (٢) سورة يونس آية (٩١) والاستفهام للانكار والتوبيخ ، والظرف متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً أى آ لآنَ تؤمن وقد يئست من الحياة ، وأيقنت بالمات . (٣) السرور والخير والفضل . (٤) تقيض السراء وتطلق على المشقة والعسر .

فإنه لا يدري المرء متى تنزل به هذه الشدة من ليل أو نهار . وذكر الأعمال الصالحة عند الموت مما يُحسِّنُ ظَنَّ المؤمن بربه ، ويهَوِّنُ عليه شدة الموت ، ويقوى رجاءه .

قال بعضهم : كانوا يَسْتَحِبُّونَ أن يكون للمرء خبيثة^(١) من عمل صالح ، ليكون أهون عليه عند نزول الموت ، أو كما قال . وكانوا يستحبون أن يموت الرجل عقب طاعةٍ عملها من حج ، أو جهاد ، أو صيام . وقال النَّخَعِيُّ : كانوا يستحبون أن يُلقنوا العبدَ محاسنَ عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

قال أبو عبد الرحمن السلمي في مرضه : كيف لا أرجو ربي ، وقد صمت له ثمانينَ رمضانَ ؟

ولما اختصرَ أبو بكر بن عباس ، وبكوا عليه قال : لا تبكوا فإني ختمت القرآن في هذه الزاوية ثلاث عشرة ألف ختمة .

وروى أنه قال لابنه : أترى أن الله يضيع لأبيك أربعين سنة يحتم كل ليلة [فيها القرآن^(٢)] ؟

وقال بعض السلف لابنه عند موته وراه يبكي قال : لا تبك فما أوتي أبوك قط .

وختم آدم بن أبي إياس القرآن ، وهو مُسَجِّي^(٣) للموت ، ثم قال : بحبي لك إلا رقت بي في هذا المصراع ، كنت أؤمك لهذا ، كنت أرجوك لهذا ، لا إله إلا الله ثم قضى^(٤) رحمه الله .

(١) كصدقة السر والصلاة في جوف الليل . (٢) ما بين الفوسين ليس في الأصل . (٣) مغطى . (٤) مات .

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند موته : سيدى ! لهذه الساعة خَبَأْتُكَ ،
حقق حسن ظنى بك .

وقال ابن عقيل عند موته وقد بكى النسوة : قد وُفِّتُ عنه خمسين سنة ،
فدعوني أتهنأ ببقائه . ولما هجم القرامطة ^(١) على الحُجَّاج ، وقتلواهم فى
الطواف ، وكان على بن باكوية الصوفى يطوف فلم يقطع الطواف والسيوف
تأخذه حتى وقع ، فأنشد :

ترى المحبين صرعى فى ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا ؟
وبعد بيت آخر :

تالله لو حلف الأحاب أنهم موتى من البين يوم البين ما حنوا
فمن أطاع الله واتقاه ، وحفظ حدوده فى حياته تولاه الله عند وفاته ،
وتوفاه على الإيمان ، وثبته بالقول الثابت فى القبر عند سؤال الملكين ، ودفع
عنه عذاب القبر ، وأنس وحشته فى تلك الوحدة ، والظلمة .

قال بعض السلف : إذا كان الله معك عند دخول القبر ، فلا بأس
عليك ، ولا وحشة .

ورئى بعض العلماء فى النوم بعد موته ، فسئل عن حاله ، فقال :
يُؤْنِسُنِي رَبِّي عز وجل ، فمن كان الله سبحانه وتعالى أنيسه فى خلواته فى
الدنيا ، فإنه يرجى أن يكون أنيسه فى ظلمات اللحد ، إذا فارق الدنيا ،
وتخلّى عنها ، وفى هذا يقول بعضهم :

(١) طائفة من الباطنية ظهرت دعوتهم فى خلافة المأمون ، وانتشرت فى خلافة
المعصم . وهم أشد ضرراً على الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس .

فيارب كن لي مؤنساً يوم وحشتي فإني بما أنزلته لمصدق
وما ضرني أني إلى الله صائر ومن هو من أهلي أبر وأرفق
وكذلك أهوال القيامة ، وأفزاعها ، وشدائدها إذا تولى الله عبده المطيع
له في الدنيا أنجاه من ذلك كله .

قال قتادة في قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » قال :
من الكرب عند الموت ، ومن أفزاع يوم القيامة .
وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية :
ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة .

وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم
استقاموا ^(١) » قال : يُبَشِّرُ في ذلك عند موته ، وفي قبره ، ويوم البعث ،
فإنه لنى الجنة ، وما ذهب فرحة البشارة من قلبه .

وقال ثابت البناني في هذه الآية : بلغنا أن المؤمن حين يبعثه الله من
قبره ، يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ،
فَيُؤْمِنُ اللهُ خَوْفَهُ ، وَيُقَرِّئُ عَيْنَهُ ، فما من عظمة تغشى الناس يوم القيامة
إلا وهي قرّة عين ، لما هداه الله ، ولما كان يعمل في الدنيا . خرّج ذلك
كله ابن أبي حاتم وغيره .

وأما من لم يتعرف إلى الله في الرخاء ، فليس له أن يعرفه في الشدة ،
لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، وشواهد هذا ، مشاهدة حالم في الدنيا ،
وحالم في الآخرة أشد ، وحالم من ولي ولا نصير .

(١) سورة فصلت آية (٣٠)

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إذا سألتَ فاسأل الله » أمرٌ بإفراد الله تعالى بالسؤال ، ونَهَى عن سؤال غيره من الخلق ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بسؤاله فقال : « وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ^(١) » .

وفي الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً : مَنْ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ يَغْضَبُ عَلَيْهِ ، وفيه أيضاً عن أبى هريرة : اسألوا الله من فضله ، فإن الله يحبُّ أن يُسألَ ، وفيه أيضاً إن الله يحبُّ المُسْأَلِينَ فى الدعاء .

وفي حديث آخر : لَيْسَ أَلْ أَحَدٌ كَم رَبِّهِ حَاجَتُهُ كُلِّهَا ، حتى يسأله شِئْعٌ نَعْلُهُ ^(٢) إذا انقطع .

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة . وفي النهى عن سؤال الخلق أحاديث كثيرة صحيحة .

وفي حديث ابن مسعود ، وابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً : لا يزال العبد يسأل وهو غنى ، حتى يَخْلُقَ ^(٣) وَجْهَهُ ، فما يكون له عند الله وجه . وقد بايع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً ، منهم الصديق رضى الله عنه ، وأبوذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يَسْقُطُ سَوْطُهُ ، أو خِطَامُ نَاقَتِهِ ^(٤) ، فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه . رضى الله عنهم . واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً ، وذلك من وجوه متعددة : منها أن السؤال فيه بذل لماء الوجه ، وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح إلا لله وحده ، فلا يصلح الذل إلا لله بالعبادة ، والمسألة ؛ وذلك من غاية المحبة الصادقة .

(١) سورة النساء آية (٣٢) . (٢) زمام بين الأصبع الوسطى والذى تليها . (٣) خلق الثوب كصبر وكرم وسمع : بلى وتمزق . (٤) ما يوضع فى أنف الدابة لتغاد به .

سئل يوسف بن الحسين : ما بال الحبين يتلذذون بذلهم في المحبة ؟

فأنشد :

ذُلُّ الغنى في الحب مَكْرُمَةٌ وخضوعه لحبيبه شرف

وهذا الذل ، وهذه المحبة لا تصلح إلا لله وحده ، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق .

كان الإمام أحمد — رحمه الله — يقول في دعائه : اللهم كما مُصِنْتُ وجهي عن السجود لغيرك ، فضُنِّه عن المسألة لغيرك .

وقال أبو الحسين الأقطع : كنت بمكة سنة ، فأصابتني فاقة وضرر ، فكنت كلما أردت أن أخرج إلى المسألة هتف بي هاتف يقول : الوجه الذي تسجد لي به تبذله لغيري !!؟

وفي المعنى يقول بعضهم :

ما اعتاضَ باذِلٌ وجهه بسؤاله بدلاً ، وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤالُ مع النوالِ وزنته رجع السؤالُ ، وخفَّ كلُّ نوال

فإذا ابتليتَ ببذِلٍ وجهك سائلاً فابذله للمتكرِّمِ الفضال

ولهذا المعنى كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة ،

وليس على وجهه مُزْعَمَةٌ^(١) لحم ، كما ثبت ذلك في الصحيحين ، لأنه أذهب

عزَّ وجهه ، وصيانته ، وماءه في الدنيا ، فأذهب الله من وجهه في الآخرة

جماله ، وبهائه الحسى ، فيصير عظامه بغير لحم ، ويذهبُ جماله ، وبهاؤه

المنوى ، فلا يبقى له عند الله وجاهةٌ .

(١) بضم الميم وكسرهما : القطعة من اللحم .

ومنها أن سؤال الله عبودية عظيمة ، لأنها إظهار الافتقار إليه ، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج ، وفي سؤال المخلوق ظلم ، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ، ودفع الضر عنها ، فكيف يقدر على ذلك لغيره ؟ وسؤاله إقامة له مقام من يقدر وليس هو بقادر .

ويشهد لهذا المعنى الحديث الذي في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط^(١) إذا تمس في البحر .

وفي الترمذي وغيره زيادة في هذا الحديث « وذلك بأني جوادٌ واحد ماجد ، أ فعل ما أريد ، عطائي كلامٌ وعذابي كلام^(٢) ؛ إذا أردت شيئاً فإنا أقول له كن فيكون » . فكيف يُسأل الفقير العاجز ، ويُترك الغني القادر ؟ إن هذا لأعجب العجب .

قال بعض السلف : إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو مالكتها فكيف أسأله من لا يملكها؟! يعني المخلوق .

وحصل لبعض السلف ضيق في معيشته حتى هم أن يطلب من إخوانه ، فرأى في منامه قائلاً يقول له : « أيحسن بالحر المريد ، إذا وجد عند الله ما يريد ، أن يميل بقلبه إلى العبيد »!!! فاستيقظ وهو أغنى الناس قلباً وقال :

(١) الحياط ككتاب ، المخيط كمنبر : الإبرة ، وما خيط به التوب . (٢) هذا تصوير ليسر الأمور عليه سبحانه ، وأنه لا يشق عليه شيء .

عَذَابُهُ فِيكَ عَذَابٌ وَبَعْدَهُ فِيكَ قُرْبٌ
 وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
 حَسْبِي مِنَ الْحَبِّ أَنْيُّ لِمَا تُحِبُّ أَحِبُّ
 وَأَنْشُدُ أَبُو تَرَابٍ (١) :

لَا تُخْذَعَنَّ، فَالْمُحِبُّ دَلَالٌ وَلَدَيْهِ مِنْ تُحْفِ الْحَبِيبِ وَسَائِلٌ
 مِنْهَا : تَنْعَمُهُ بِمَرٍّ بِلَانِهِ وَسُرُورُهُ فِي كُلِّ مَا هُوَ فَاعِلٌ
 فَالْمَنْعُ مِنْهُ عَطِيَّةٌ مَقْبُولَةٌ وَالْفَقْرُ إِكْرَامٌ وَبِرٌّ عَاجِلٌ

دخلوا على رجل قد قُتِلَ ابْنُهُ فِي الْجِهَادِ ، يُعْزُوْنَهُ ، فَبَكَى ، وَقَالَ :
 مَا أَبْكَى عَلَى قَتْلِهِ ، إِنَّمَا أَبْكَى كَيْفَ كَانَ رِضَاهُ عَنِ اللَّهِ حِينَ أَخَذَتْهُ السُّيُوفُ ؟

إِنْ كَانَ سَكَانُ الْعَضَا رَضُوا بِقَتْلِي فَرَضَا
 وَاللَّهُ مَا كُنْتُ لِمَا يَهْوَى الْحَبِيبُ مُبْغِضَا
 صِرْتُ لَهُمْ عَبْدًا ، وَمَا لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْتَرِضَا
 هُمْ قَلْبُوا قَلْبِي مِنَ الشَّقْوَى عَلَى حَجْرِ الْعَضَا
 يَا لَيْتَ أَيَّامَ الْحِمَى يَعُودُ مَا مِنْهَا مَضَى
 مَنْ لِمَرِيضٍ لَا يَرَى إِلَّا الطَّيِّبَ الْمُرِيضَا ؟

والمقصود أن النبي ﷺ أمر ابن عباس رضي الله عنهما بالعمل بالرضا
 إن استطاعه ، ثم قال له : فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً
 كثيراً ، وهذا يدل على أن الرضا بالأقدار المؤلمة ، ليس بحتم واجب ، وإنما
 هو فضل مندوب إليه ، فمن لم يستطع الرضا فليزِم الصبر ، فإن الصبر
 (١) كنية جماعة ، أولهم على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومنهم أبو تراب
 عسكر بن حسين النخشي الصوفي ، وهذا الشعر بكلام الصوفية أشبه .

واجب لا بد منه ، وفيه خير كثير ، فإن الله تعالى أمر بالصبر ، ووعد عليه جزيل الأجر . قال تعالى : « إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١) » وقال تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ^(٢) » وقال تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ^(٣) » .

قال الحسن : الرضا عزيز : ولكن الصبر معمول المؤمنين ، وقال سليمان الخواص : الصبر دون الرضا ، فالرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضياً بأى شيء كان ، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر . وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا ، أن الصبر كَفَّ النفس ، وحبسها عن التَّسَخُّط مع وجود الألم ؛ والرضا يُوجب انشراح الصدر وسعته ، وإن وجد الإحساس بأصل الألم ، لكن الرضا يُخَفِّف الإحساس بالألم ، لما يُبَاشِر القلب من رُوح اليقين والمعرفة ، وقد يُزِيل الإحساس بالكلية كما سبق تقرير لهذا .

وقال طائفة من أكثر السلف منهم عمر بن عبد العزيز ، والفضيل ، وأبو سليمان ، وابن المبارك ، وغيرهم : إن الراضى لا يتمنى غير حاله التي هو عليها ، بخلاف الصابر .

وقد روى عن طائفة من الصحابة هذا المعنى أيضاً ، وأنهم كانوا

(١) سورة الزمراء آية (١٠) . (٢) سورة البقرة آية (١٥٥ و١٥٦ و١٥٧) .

(٣) سورة الحج آية (٣٤) و (٣٥) .

لا يتمنون غير ما هم عليه من الحال ، منهم عمر وابن مسعود رضى الله عنهما .
قال عبد العزيز بن أبي رواد : كان عابدٌ يتعبد في بني إسرائيل ، فرأى في
منامه أن فلانة زوجته في الجنة ، فاستضافها ثلاث ليال لينظر عملها ،
فكانت تنام وهو يقوم ، وتفطر وهو يصوم ، فلما فارقها سأها عن أوثق
عملها عندها : قالت هو ما رأيتَ إلا حُصَيْلَةً واحدة : إن كنتُ في شدة
لم أتمنَّ أنى في رخاء ، وإن كنت في مرض لم أتمنَّ أنى في صحة ، وإن
كنت جائعة لم أتمنَّ أنى شبعانة ، وإن كنت في شمس لم أتمنَّ أنى في قَيْءٍ (١) .
فقال العابد : هذه والله خصلة يعجز عنها العباد .

وكا أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى كما صح ذلك عن
النبي ﷺ فالرضا إنما يكون عند نزول البلاء ، كما كان النبي ﷺ يقول
في دعائه : وأسألك الرضا بعد القضاء ، لأن العبد قد يعزم على الرضا بالقضاء
قبل وقوعه ، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة ، فمن رضى بعد وقوع القضاء
فهو الراضى حقيقة . وفي الجملة فالصبر واجب لا بد منه ، وما بعده إلا التسخط
وَمَنْ سَخِطَ أَقْدَارَ اللَّهِ ، فَهُوَ السَّخِطُ مَعَ مَا يَتَعَجَّلُ لَهُ مِنَ الْأَلْمِ ، وَشِمَاتُهُ
الأعداء به أعظم من جزعه كما قال بعضهم :

لَا تَجْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ خُطْبِ عَرَا وَلَا تُرَى (٢) الأعداء ما يشمتوا (٣)
ياقوم بالصبر يُنالُ المنى إذا لقيتمُ فِتْنَةً فَأَثْبِتُوا

(١) ظل .

(٢) هكذا في الأصل بإثبات حرف العلة مع الجازم والصحيح حذفه .

(٣) هكذا في الأصل يلحاق واو الجماعة وحذف نون الرفع والصحيح « يشمت »

بضم الياء وسكون وكسر الشين الميم والضمير فيه عائد على (ما) الموصولة .

وقال النبي ﷺ: من يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً ولا أَوْسَعَ من الصبر .

وقال عمر : وجدنا خيرَ عيشنا الصبرَ ، وقال عليّ : إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الجنة ، لا يعطيه الله إلا من كرم عليه ،

وقال ميمون بن مهران : ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير — نبيّ

فمن دونه — إلا بالصبر .

وقال إبراهيم التيميّ : ما من عبدٍ وهبه الله صبراً على الأذى ، وصبراً

على البلاء ، وصبراً على المصائب ، إلا وقد أُوتِيَ فضلاً ما أُوتِيَهُ أَحَدٌ بعد

الإيمان بالله عز وجل . وهذا مُنتزَع من قوله تعالى : « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَىٰ قَوْلِهِ : وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(١) » والمراد

بالبأساء الفقر ونحوه ، وبالضراء المرض ونحوه ، وحين البأس حال الجهاد .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة ، فانتزعها منه ،

فعاَضَهُ ^(٢) مكانَ ما انتزع منه الصبرَ إلا كان ما عَوَضَهُ خيراً مما انتزع

منه ، ثم تلا : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ^(٣) » .

وكان بعض الصالحين في جيبه ورقة يفتحها كل ساعة ، فينظر فيها ،

وفيهما مكتوب : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ^(٤) » .

والصبر الجميل هو أن يكتم العبد المصيبة ولا يخبر بها .

(١) سورة البقرة آية (١٧٧) . (٢) أعطاه بدلها . (٣) سورة الزمر آية (١٠) .

(٤) سورة الطور آية (٤٨)

قال طائفة من السلف في قوله تعالى : « فصبر جميل ^(١) » قال :
لا شكوى معه .

وكان الأحنف بن قيس قد ذهب عينه من أربعين سنة
لم يذكرها لأحد .

وذهبت عينا عبد العزيز بن أبي رواد من عشرين سنة ، فتأمله ابنه
يوما فقال له : يا أبتى ! قد ذهب عينك ؟ فقال : نعم يا بني ، الرضا عن الله
أذهب عيني أيبك من عشرين سنة .

وكان الإمام أحمد رحمه الله : لا يشتكى ما به من المرض لأحد ،
وذُكر له أن مجاهداً كان يكره الأنين في المرض ، فتركه فلم يئن حتى مات ،
وكان يقول لنفسه : يانفس اصبري وإلا تندى .

ودخل بعض العارفين على مريض يقول : آه ، فقال له هذا العارف :
مِمَّنْ ؟ وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تَفِيضُ النُّفُوسِ بِأَوْصَابِهَا وَتَكْتُمُ غُؤَادَهَا مَا بِهَا
وَمَا أَنْصَقَتْ مُهْجَةً تُشْتَكِي هَوَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

قال يحيى بن معاذ : لو أحببت ربك ثم جَوَّعَكَ ، وأَعْرَكَ ، لكان
يجب أن تحتمله ، وتكتمه عن الخلق ، فقد يحتمل الحبيب لحبيبه الأذى ،
فكيف وأنت تشكوه فيما لم يصنعه بك !!!

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفَعْلُ عِنْدِي وَتَقَعْلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ
كان الرسول ﷺ وأصحابه يُشَدُّونَ عَلَى بَطُونِهِمُ الْحِجَارَةَ مِنَ الْجُوعِ .

(١) سورة يوسف آية (١٨) .

كان أُويس رحمه الله يلتقط الكسرة من المزابل^(١) ، والكلاب
تزاحمه ، فَنَبَّحَ عليه كلب يوماً فقال : يا كلب : لا تُؤذِ من لا يُؤذِيكَ ،
كل مما يليك ، وَاكَل مما يليني ، فإن دخلتُ الجنة فأنا خير منك ، وإن
دخلتُ النار فأنت خيرٌ مني .

وكان إبراهيمُ بن أدهم يَلْقُطُ السَّنْبِلَ مع المساكين ، فرأى منهم كراهة
المزاحمة ، فقال : أنا تركت ملك بلخ ، أفزاحم المساكين على لقاط السنبِلِ؟!
فكان بعد ذلك لا يلتقط إلا مع الدواب التي ترعى فيه .

وكان الإمام أحمد يلتقط السنبِلَ مع المساكين أيضاً .
وَأَجَرَ سَفِيانَ الثوري نفسه من جَمَّالين في طريق مكة فطبخ لهم
طعاماً فأفسده فضر به .

كان فَتَحُ الموصلي يوقد النار للناس بالأجرة .

مِنْ أَجْلِكَ قَدْ أَنْزَلْتَ خَدِّي أَرْضَا للشامات والحسود حتى ترضى
مَوْلَايَ ! إِلَى مَتَى بِهَذَا أَحْظِي ؟ عمرى يفنى وحاجتى ما تقضى^(٢)
قال غيره :

كَمْ أَحْمَلُ فِي هَوَاكَ ذُلًّا وَعَنَّا كَمْ أَصْبِرُ فَيْكَ تَحْتَ سَقَمٍ وَضَنِي
لَا تَطْرُقُنِي فَيْلِسْ عَنكَ غِنِي خذ رُوحِي إِنْ أَرَدْتَ الثَّمَنَا^(٣)

(١) جمع مزبلة : موضع إلقاء ما بقى من الأطعمة وغيرها .

(٢) هكذا ورد هذان البيتان بالأصل وهما بهذا الوضع خارجان عن أوزان الشعر
المعروفة ، ويمكن تعديل نظمهما هكذا :

أَنْزَلْتَ مِنْ أَجْلِكَ خَدِّي أَرْضَا للشامات الحسود حتى ترضى
إِلَى مَتَى رَبِّي بِهَذَا أَحْظِي ؟ عمرى يفنى والمنى ما تقضى

(٣) هكذا ورد هذان البيتان بالأصل وهما خارجان بهذا الوضع عن أوزان الشعر =

من أجل هواكم هَوَيْتُ العِشْقَا قَلْبِي كَلِفْتُ وِدْمَعِي مَا تَرَقَا
فِي حِكْمِ يَهُونِ مَا قَدِ أَلْتِي مَا يَسْعَدُ بِالنَّعِيمِ مَنْ لَا يَشْقَى (١)
كانت مصائب الدنيا عندهم نعماً حتى قال بعضهم : ليس بفضيه من
لَا يَعُدُّ البَلَاءُ نِعْمَةً ، والرِّخَاءُ مَصِيبَةً .

ومن الإسرائيليات : إذا رأيت الغنى مقبلاً ، فقل : ذنب عجلت
عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين .

وقال بعض السلف : إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع
مرات : أحمد الله إذ لم تكن أعظم مما هي ، وأحمد الله إذ رزقني الصبر
عليها ، وأحمد الله إذ وقفتي للاسترجاع ، وأحمد الله إذ لم يجعلها في ديني .
« انتظارُ الفرج بالصبر عبادة ، فإن البلاء لا يدوم » .

اصْبِرْ لِكُلِّ مَصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ واعلمْ بأن الصبرَ غيرُ مؤبَّدِ
واصبر كما صبر الكرامُ فإنها نُوبٌ تُنَوَّبُ اليَوْمُ تُكشَفُ في غَدِ
إذا نُغِيسَ أعظمُ الناسِ بلاءَ كان في الدنيا — في الجنة غمسة ،
قيل له : هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرَّ بك بؤس قط ؟ قال : لا يارب .

يا نفسُ ما هي إلا صَبْرُ أَيامِ كَأَنَّ مُدَّتَها أَضْغاثُ أَحلامِ
يا نفسُ جُوزِي عن الدنيا مبادرةً واخل عنها فإن العيش قدامي

= المروفة ويمكن تعديل نظمهما هكذا :

حملت في هواك ذلاً وعنا
لا تطردني ليس لي عنك غنى
فيك اصطبرت تحت سقم وضي
روحي خذها إن أردت التنا

(١) هكذا ورد هذان البيتان بالأصل وهما خارجان بهذا الوضع عن أوزان الشعر

المروفة ، ويمكن تعديل نظمهما هكذا :

هواكمو به هويت العشقا
في حكم يهون ما قد ألتى
قلبي جو ودمعتي ما ترقا
ما يسعد النعيم من لا يشقى

قال غيره :

وما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويَزولُ

قوله صلى الله عليه وسلم :

واعلم أن النصر مع الصبر ، هذا موافق لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) » وقوله تعالى : « فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ : مَعَ الصَّابِرِينَ ^(٢) » . وقوله تعالى : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(٣) » وقوله تعالى : « بَلَى إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ^(٤) » إلى غير ذلك من الآيات . والأحاديث في الأمر بالصبر عند لقاء العدو كثيرة جداً .

وقال عمر لأشياخ من بنى عبس : بم قاتلتم الناس ؟ قالوا : بالصبر ، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا .

وقال بعض السلف : كنا ^(٥) نكره الموت وألم الجراح ، ولكن تتفاضل بالصبر .

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) . (٢) سورة الأنفال آية (٦٥) . (٣) سورة البقرة آية (٢٤٩) . (٤) سورة آل عمران آية (١٧٥) ومعنى الآية : إن تصبروا على مضى الجهاد وتتقوا ربكم باجتناب المعاصي ، ويأتكم المشركون مسرعين يمددكم ربكم بالملائكة المميزين بعلامات تعرفونهم بها ، وإمداد الله تعالى المؤمنين بالملائكة ليمان بنصرهم عند تحقق صبرهم وتقواهم . (٥) هكذا في الأصل والذي في جامع العلوم والحكم للمؤلف : « كنا يكره » .

وسئل البطال عن الشجاعة فقال : صبر ساعة ، وهذا كله في جهاد العدو الظاهر ، وهو جهاد الكفار ، وكذلك في جهاد العدو الباطن ، وهو جهاد النفس والهوى ، فإن جهادهما من أعظم الجهاد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : المجاهد من جاهد نفسه في الله . وقال ^(١) عبد الله بن عمر لما سأله عن الجهاد : ابدأ بنفسك فجاهدها ، وابدأ بنفسك فاغزها . ويروى بإسناد ضعيف من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقوم رجعوا من الغزو : قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد لهواه .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر رضي الله عنه حين استخلفه : إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك . ويروى من حديث سهل بن سنان عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، ومن حديث مالك الأشجعي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا قال : ليس عدوك الذي إذا قتلك أدخلك الجنة ، وإذا قتلته كان لك نوراً ، أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك . وأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف [فقال] ^(٢) :

قلبي إلى ماضني داعي يكتر أوجالي ^(٣) وأوجاعي
 وقلما أبقى على ما أرى يؤشك أن ينعاني الناعي
 كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

(١) الذي يظهر لنا — بتوفيق الله تعالى — أن الضمير في قال يعود للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه فيكون نظم الكلام هكذا « وقال لعبد الله .. » . (٢) هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي الشاعر المصهور جميع شعره في النزول ، وشعره كثة جيد . (٣) مخاوفي .

فهذا الجهاد أيضاً يحتاج إلى صبر ، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه
 وشيطانه غلب وحصل له النصر ، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك
 غلب وقهر وأسر ، وصار ذليلاً أسيراً في يد شيطانه وهواه ، كما قيل :
 إذا المرء لم يغلب هواه أقامه بمنزلة فيها العزيز ذليل
 وقال غيره :

رب مستورٍ سبته ^(١) صَبْوَةٌ ^(٢) فتعرى صبره فانهتكا
 صاحب الشهوة عبد ، فإذا غلب الشهوة صار الملكا

قال ابن المبارك رحمه الله : من صبر فما أقل ما يصبر ، ومن
 جزع فما أقل ما يتمتع ؛ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : ليس
 الشديد بالصُّرْعَةِ ^(٣) ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب .
 ووصف بعضهم الأحنف بن قيس ، فقال : كان أشدَّ الناس سلطاناً
 على نفسه . قيل لبعضهم : إن فلاناً يمشى على الماء ^(٤) .

واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك إن عرَفْتُ منك الجِدَّ جَدَّتْ ، وإن
 عرفت منك الكسل طمعت فيك : وطلبت منك حظوظها وشهواتها .
 كان أبو سليمان الداراني يقول : كنت بالعراق أمرُّ على تلك القصور
 والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك فلا تلتفت نفسي إلى شيء من ذلك ،
 وأمر على التمرة فتكاد نفسي تقع عليها ، فذُكر ذلك لبعض العارفين ؛
 فقال : تلك الشهوات آيسَ نفسه منها فأيست ، والتمرَّة أطمعها فيها فطمعت ؛
 كما قيل في المعنى :

(١) ملكته. (٢) هوى. (٣) القوى الذي يصرع غيره ويفلته. (٤) يباح بالأصل.

صبرت على اللذات حتى تَوَلَّتِ وألزمت نفسي هجرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تآقت ، وإلا تسكَّتِ
وكانت على الأيام نفسى عزيزة فلما رأَت عزمى على النذل ، ذَلَّتِ
فقوله صلى الله عليه وسلم : إن النصر مع الصبر ، يشمل الصبر على جهاد العبد العدو
الظاهر ، وجهاده لعدوه الباطن وهو نفسه وهواه ، وكان السلف يفضلون
هذا الصبر على البلا (١) .

قال ميمون بن مهران : الصبر صبران ، الصبر على المصيبة حسن ،
وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي .

وقال سعيد بن جبير : الصبر على نوعين : أحدهما الصبر عما حرم الله ،
والصبر على ما افترض الله من عبادته وذلك أفضل الصبر ؛ والصبر الآخر فى
المصائب . وقد ورد فى هذا حديث مرفوع من حديث على ، لكنه لا يثبت .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ » هذا يشهد
له قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ
كَيْفَ يَشَاءُ ، إلى قوله : فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ .
فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي
الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢) .

(١) لعل لفظ « البلا » محرف عن لفظ « الأول » . (٢) سورة الروم
آية (٤٨) و (٤٩) و (٥٠) .

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أَبِي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ: ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ^(١). أخرجه الإمام أحمد، وأخرج ابنه عبد الله من حديث أَبِي رَزِينِ أَيْضاً: إنه لِيُشْرِفَ عَلَيْكُمْ أَزْرِينَ ^(٢) قَنِطِينَ فَيُضَلُّ بِضُحْكَكَ، عَلِمَ أَنْ غَيْشَكُمْ قَرِيبٌ.

والمعنى: أنه سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر عنهم، وخوفهم وإشفاقهم ويأسهم من الرحمة، وقد قدر الله تغيير هذه الحال عن قرب بانزال المطر، ولكنهم لا يشعرون. وهذا كما اشتكى [الصحابة] للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وهو قائم يخطب الجمعة — احتباس المطر، وجهد الناس، وسألوه أن يَسْتَسْقِيَ رَبَّهُ، فرفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه فاستسقى لهم، فنشأ السحاب، ومطروا إلى الجمعة الأخرى، حتى قاموا إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسألوه أن يَسْتَضْحِي ^(٣) لهم، ففعل، فأقلعت السماء.

وقد قصَّ الله تعالى في كتابه قصصاً كثيرة تتضمن وقوع الفرج بعد الكرب والشدة؛ كما قصَّ نجاة نوح ومن معه في الفلك من الكرب العظيم مع إغراق سائر أهل الأرض؛ وكما قصَّ نجاة إبراهيم عليه السلام من النار التي ألقاه المشركون فيها، وأنه جعلها عليه برداً وسلاماً؛ وكما قصَّ قصة إبراهيم عليه السلام مع ولده الذي أمرَ بذبحه ثم فداه الله بِذَبْحٍ عَظِيمٍ؛ وكما قصَّ قصة موسى عليه السلام مع أمه لما ألقته في اليم حتى التقطه آل فرعون، وقصته مع فرعون لما نجى الله سبحانه

(١) المراد: أنه لم يرض عن يأس عباده من رحمته مع أنها قريبة منهم.

(٢) الأزل: الشدة والضييق. (٣) يطلب كف المطر وحبسه.

موسى في البحر ، وأغرق عدوه ؛ وكما قص قصة أيوب ويونس ويعقوب
ويوسف عليهم السلام وقصة قوم يونس لما آمنوا ؛ وكما قص قصص
محمد صلى الله عليه وسلم ، ونصره على أعدائه ، وإنجائه منهم في عدة
مواطن : مثل قصته في الغار ، وقصة يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم حنين ؛
وكما قص الله سبحانه قصة عائشة رضی الله عنها في حديث الإفك ، وبرأها
فيه مما رميت به ، وقصة الثلاثة الذين خَلَفُوا حتى إذا ضاقت عليهم
الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله
إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا .

وفي السُّنة من هذا المعنى شيء كثير : مثل قصة الثلاثة الذين دخلوا
الغار فانطبقت عليهم صخرة ، فدَعَوْا الله بأعمالهم ففرَّج عنهم .

ومثل قصة إبراهيم وسارة عليهما السلام مع الجبار الذي طلبها
من إبراهيم ، ورد الله كيد الفاجر . والحكايات في هذا المعنى في الإسلام
وقبله كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها ، وكثير منها مذکور في الكتب
المصنفة في الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا وغيره ، وكتاب مجابى الدعوات
لابن أبي الدنيا ، وكتاب المستغيثين بالله والمستصرخين به ، وكتب كرامات
الأولياء ، وأخبار الصالحين ، وفي كتب التواريخ وغيرها .

ومن نذكر طرفاً هاهنا يسيراً ، من أظرف ما حكى في هذا الباب ليعتبر به :
ذكر بعض العلماء في مصنف له — وأظنه من المغاربة (١) —

(١) هو أبو بكر الطرطوشي في مصنفه : سراج الملوك ، في الباب التاسع والخمسين ،
والمؤلف إنما حكى القصة بالمعنى .

أنه سمع من أبي ذرٍّ^(١) المروى الحافظ ، يحكى أنه كان ببغداد يقرأ على أبي حفص بن شاهين ، في دكان عطار ، وأنه شاهد رجلا جاء إلى العطار ، فدفَع إليه عشرة دراهم ، وأخذ منه حوائج ، وجعلها في طبق ، ووضعها على رأسه ، فزلق طبقه ، وتفرقت حوائجه ، فبكى ، واشتد بكأؤه ، وقال : لقد ضاع منى في قافلة كذا وكذا : هميان^(٢) فيه أربعمائة دينار ، أو قال أربعة آلاف دينار ، ومعها فصوص قيمتها أكثر من ذلك ، فما جزعت لضياعها ، ولكن ولد لي الليلة ولد ، فاحتجنا في البيت إلى ما تحتاج إليه النساء ، ولم يكن عندي غير هذه العشرة الدراهم ، فلما قدر الله بما قدر ، جزعت ، وقلت : لا أنا عندي ما أرجع به اليوم إلى أهلي ، ولا ما أكتسب به غداً ، ولم يبق لي حيلة إلا الفرار عنهم وتركهم على هذه الحال فيهلكون بعدي ، فلم أملك نفسي أن جزعت هذا الجزع . قال أبو ذر — ورجل من شيوخ الجند جالس على باب داره فسمع هذا كله ، فسأل الجندي أبا حفص أن يدخل هو وأصحابه والرجل المصاب معه إلى بيته ، ففعل ، وطلب من الرجل المصاب إعادة حكايته في الهميان ، فأعاد ذلك عليه ، وسأله عن كان في تلك القافلة ، وعن المكان الذي ضاع فيه الهميان ، فأخبره ، ثم سأله عن صفة الهميان ، وعلامته فأخبره بذلك ، فقال : لورأيتَه ، أ كنتَ تعرفه ؟ ، قال : نعم . قال : فأخرجه إليه ، فلما رآه قال : هذا الهميان الذي سقط [منى] ، وفيه من الأحجار ما صفته كذا وكذا ، ففتح الهميان ،

(١) هو لم يسمع من أبي ذر ، وإنما سمع من أبي الوليد الباجي ، وأبو الوليد سمع من أبي ذر ، ففعل أصل العبارة : أنه سمع ممن سمع الخ . والله أعلم . (٢) حزام يشد على الوسط ، توضع فيه النقود ونحوها .

فوجد الأحجار على ما وصف ، فدفعه إليه ، وخرج من عنده وقد صار من الأغنياء . فلما خرج بكى الشيخ الجندى بكاءً شديداً ، فسُئِلَ عن بكائه ، فقال : إنه لم يكن بقى لى فى الدنيا أمل ولا أمنية أتمناها إلا أن يأتى الله بصاحب هذا المال فيأخذه ، فلما قضى الله بذلك بفضله ، ولم يبق لى أمل ، علمت أنه قد حان أجلى .

قال أبو ذرٍّ : فما انقضى شهر حتى توفى وصلينا عليه . رحمه الله .
وفى هذا المعنى حكايات كثيرة عجيبة تركناها .

* * *

قوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » هذا منتزع من قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ^(١) » وقوله : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ^(٢) » .

وروى حميد بن حماد بن الحوار ^(٣) : حدثنا عائذ بن شريح ^(٤) ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً وحياله جُحْرُ فقال : لو جاء العسرُ فدخل هذا الجُحْرُ لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله عز وجل : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » أخرجه ابن أبي حاتم فى تفسيره ، وخرجه البزار فى مسنده ، ولفظه :

(١) سورة الطلاق ، آية (٧) . (٢) سورة المرح آية (٥) ، (٦) .
(٣) حميد بن حماد بن الحوار ، بضم المعجمة التميمى الكوفى ، ضعفه أبو داود ، وقال الدار قطنى : يعتبر به ، وذكره ابن حبان فى الثقات ولىنه ابن عدى ، وقال أبو حاتم : شيخ يكتب حديثه ، ليس بالمشهور . (٤) صاحب أنس ، قال أبو حاتم : فى حديثه ضعف ، وقال ابن طاهر : ليس بشيء .

لو جاء العسر حتى يدخل هذا الجحر لجاؤ إليه اليسر حتى يخرجته ، ثم قال :
إن مع العسر يسراً . وحيد بن حماد هذا ضعيف .

وخرج ابن أبي حاتم من رواية مبارك بن أبي فضالة عن الحسن قال :
كانوا يقولون لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وخرج ابن جرير من رواية عن الحسن قال : خرج النبي ﷺ يوماً
مسروراً فرحاً وهو يقول : لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، إن مع العسر يسراً
إن مع العسر يسراً .

وخرجه أيضاً من رواية عوف ويونس عن الحسن مرسلًا^(١) أيضاً ،
ومن حديث قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر
أصحابه بهذه الآية فقال : « لن يغلب عسر يسرين » .

ومن حديث عبد الله بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جده أن أبا عبيدة
حُصِرَ ، فكتب إليه عمر يقول : ما ينزل بامرئ شدة إلا جعل الله له
بعدها فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالى يقول : « أَصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »^(٢) .

وكذا قال ابن عباس وغيره من المفسرين في هذه الآية : « لن يغلب
عسر يسرين » كان بعض المتقدمين ليلة في بادية في غم شديد ، فألقى
في رُوعه بيت من الشعر قال :

أرى الموت لمن أضد ببح مغموماً ، له أصلح
فلما جن عليه الليل سمع هاتفاً يهتف :

(١) المرسل : ما سقط منه الصحابي . (٢) سورة آل عمران ، آية (٢٠٠) .

ألا أيها المرء الذى به الهم لم يبرح^(١)
 وقد أنشد بيتاً لم
 إذا اشتد بك العسر
 رفقك في ألم نشرح
 فعر بين يسرين إذا أبصرته فافرح

قال : حفظت الأبيات ففرّج الله غمى . وقد أكثر الشعراء من القول

في هذا المعنى ، ونذكر قطعة منتخبة من محاسن ما قيل في ذلك :

تصبر إن عقبى الصبر خير ولا تجزع لنائبة تنوب
 فإن اليسر بعد العسر يأتي وعند الضيق تنكشف الكرب
 وم جزعت نفوس من أمور أتى من دونها فرج قريب
 ولبعضهم :

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً فقد أيسرت في الزمن الطويل
 ولا تظنن بربك ظنّ سوء فإن الله أولى بالجليل
 ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل
 فإن العسر يتبعه يسار وقيلُ الله أصدقُ كلِّ قيل
 ولبعضهم :

مفتاح باب الفرج الصبر وكل عسر بعده يسر
 والدهر لا يبتقى على حالة والأمر يأتي بعده الأمر

(٢) هكذا في الأصل بهذا الوضع الذى لا يوافق وزناً من أوزان الشعر ، ويمكن

تعديل نظمه هكذا :

ألا أيها المرء الذى في الهم لم يبرح

ولبعضهم :

عسى ماترى ، ألا يدوم وأن ترى له فرجاً مما يجيء به الدهر
عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر
إذا لاح عسر فارح يسراً فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر
ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا ، وفوائدها ،
وحكمها ، فمنها تكفير الخطايا بها ، والثواب على الصبر عليها ، وهل يثاب
على البلاء نفسه ؟ فيه اختلاف بين العلماء : ومنها تذكير العبد بذنوبه ،
فربما تاب ورجع منها إلى الله عز وجل ؛ ومنها زوال قسوة القلوب ،
وحدوث رقتها .

قال بعض السلف : إن العبد ليرض فيذكر ذنوبه ، فيخرج منه مثل
رأس الذباب من خشية الله فيغفر له ؛ ومنها انكساره لله عز وجل ، وذلك
له ، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين ؛ ومنها أنها توجب
للعبد الرجوع بقلبه إلى الله عز وجل ، والوقوف بيباه ، والتضرع له ،
والاستكانة ، وذلك من أعظم فوائد البلاء ، وقد ذم الله من لا يستكين له
عند الشدائد . قال تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ إِذْ أَخَذْنَا مِنْكُمْ الْبَيْعَاتِ فَأَخَذْتُمْ
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ^(١) » وقال : « وَاتَّقُوا اللَّهَ إِذْ أَخَذْنَا مِنْكُمْ الْبَيْعَاتِ
فَأَخَذْتُمْ بِالْبَيْعَاتِ ، وَالضَّرَاءُ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ^(٢) » .

وفي بعض الكتب السابقة : إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليدفع
تضرعه .

(١) المؤمنون آية (٧٦) . (٢) سورة الأنعام ، آية (٤٢) .

وقال سعيد بن عبد العزيز : قال داود عليه السلام : سبحان مُسْتَخْرِج
الدعاء بالبلاء ، وسبحان مستخرج الشكر بالرخاء .

ومر أبو جعفر محمد بن علي بمحمد بن المنكدر وهو مغموم ، فسأل عن
سبب غمه ، فقيل له : الدين قد فدحه ، فقال أبو جعفر : أفتُح له في الدعاء؟ قيل :
نعم . قال : لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها من دعاء ربه كائنه ما كانت .
وكان بعضهم إذا فُتح له في الدعاء عند الشدائد ، لم يجب تعجيل
إجابته خشية أن يقطع عما فتح له .

وقال ثابت : إذا دعا الله المؤمنُ بدعوة ، وَكَلَّ اللهُ جبريلُ بحاجته ،
فيقول الله : لا تعجل بإجابته ، فإني أحب أن أسمع صوت عبدي المؤمن ،
وروي مرفوعاً من وجوه ضعيفة .

رأى بعض السلف رب العزة في نومه فقال : يارب كم أدعوك ولا تجيبني؟
قال : إني أحب أن أسمع صوتك .

ومنها أن البلاء يوصل إلى قلبه لنة الصبر عليه ، أو الرضا به ، وذلك
مقام عظيم جداً . وقد تقدمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه .
ومنها أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى الخلق ، ويوجب
له الإقبال على الخالق وحده .

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد ، فكيف
بالمؤمن . فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه ، وذلك أعلى المقامات ،
وأشرف الدرجات .

وفي الإسرائيليات : يقول الله عز وجل : البلاء يجمع بيني وبينك ،
والعافية تجمع بينك وبين نفسك .

فصل - وإذا اشتد الكرب وعظم الخطب

كان الفرج حينئذ قريباً في الغالب

قال تعالى : « حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ^(١) » وقال تعالى : « حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ^(٢) » وَأَخْبَرَ عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمْ يَبْسُ مِنْ لِقَاءِ يَوْسُفَ ، وَقَالَ لِإِخْوَتِهِ : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَبْتَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ^(٣) » وَقَالَ : « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ^(٤) . »

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب ، أن الكرب إذا اشتد وعظم ، وتناهى ، ووُجِدَ الإيَّاسُ مِنْ كَشْفِهِ مِنْ جِهَةِ المَخْلُوقِ ، ووقع التعلق بالخالق — استجاب له وكشف عنه ؛ فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوق ، كما قال الإمام أحمد ، واستدل عليه بقول إبراهيم عليه السلام لما عرض له جبريل في الهواء ، وقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا .

والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ^(٥) »

(١) سورة يوسف : آية : (١١٠) . (٢) سورة البقرة ، آية : (٢١٤) .

(٣) سورة يوسف ، آية : (٨٧) . (٤) سورة يوسف ، آية : (٨٣) .

(٥) سورة الطلاق ، آية : (٣) .

قال الفُضَيْلُ : « والله لو يئسَت من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً لأعطاك مولاك كلَّ ما تريد » .

ومنها أن العبد إذا اشتد عليه الكرب ، فإنه يحتاج حينئذ إلى مجاهدة الشيطان لأنه يأتيه فيمَنِّطُهُ ، وَيُسَخِّطُهُ ، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ، ودفعه ، فيكون في مجاهدة عدوه ، ودفعه دفع البلاء عنه ، ودفعه ، ولهذا في الحديث الصحيح : يستجاب لأحدكم ما لم يعجل : يقول : دعوت فلم يُسْتَجَبْ لي ، فَيَدَعُ الدعاء .

ومنها أن المؤمن إذا استبطأ الفرج ، وأيس منه ، ولا سيما بعد كثرة دعائه وتضرعه ، ولم يظهر له أثر الإجابة ، رجع إلى نفسه باللأئمة ، يقول لها : إنما أتيت من قبلك ، ولو كان فيك خيرٌ لأجِبتُ ، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات ، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه ، واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه ، فلذلك يسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء ، وتفريج الكرب ، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله « على قدر الكسر يكون الجبر » .

قال وهب : تعبد رجل زماناً ، ثم بدت له إلى الله حاجة ، فصام سبعين سبْتاً ، يأكل في كل سبْتٍ إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل الله حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه فقال : مِنْكَ أُتِيتُ ، لو كان فيك خيرٌ لأعطيت حاجتك ، فنزل إليه عند ذلك ملك فقال : يا ابن آدم ، ساعتك هذه خيرٌ من عبادتك التي مضت ، وقد قضى الله حاجتك .

أهينُ لهم نفسى لكى يكرمونها ولن تكرم النفس التى لا تهينها

فمن تحقق هذا ، وعرفه ، وشاهده بقلبه ، علم أن نعم الله على عبده المؤمن في البلاء ، أعظم من نعمه عليه في الرخاء ، وهذا تحقيق معنى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن .

ومن هاهنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى بل أيهما قدر الله رضوا به ، وقاموا بعبوديته اللاتقة . وفي المسند والترمذي عن أبي أمامة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : عرضَ عليّ ربي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوماً ، وأجوع يوماً فإذا جعتُ تضرعتُ إليك وذكركُ ، وإذا شبعتُ شكرتك ، وحمدتُك . وقال عمر : ما أبالي أصبحتُ على ما أحب أو على ما أكره ، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره ، وقال عمر بن عبدالعزيز : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر .

يا هذا ، لم نستدعيك إلينا وأنت تفر منا ؟ نسبغ عليك النعم ، فتشتغل بها عنا أو تنسانا ، فنفرغ عليك البلاء لترد إلينا ، وتقف على بابنا ، ونسمع تضرعك ؛ البلاء يجمع بيننا وبينك ، والعافية تجمع بينك وبين نفسك ، كما قيل :

إن جرى بيننا وبينك عتبٌ أو تناءت منا ومنك الديار
فالوداد الذي عهدتَ مقيم والأيدى التي عهدتَ غزارُ

كم لنا في طي البلايا من منح وعطايا ، وفي الزوايا خبايا ؛ يا هذا إن
شكرت نعمنا عليك ، فتوفيقك للشكر من جملة فضلنا فاذكره ، فكل
ما تتقلب فيه فهو من نعمنا فلا تكفره ، « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ^(١) » كما قيل :

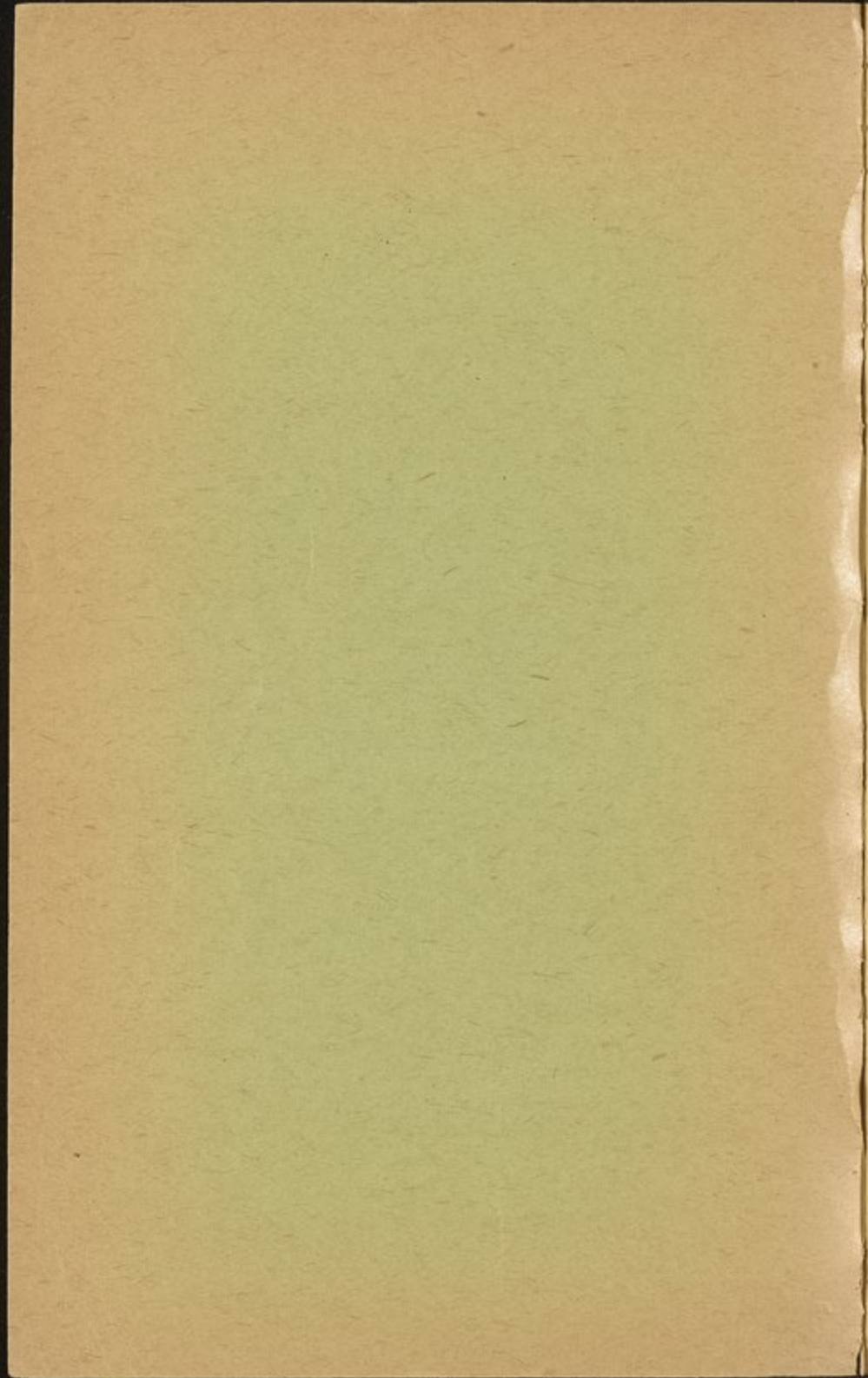
إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وَقَوْعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مِنَّةٌ تَضِيْقُ لَهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرْ وَالْبَحْرُ

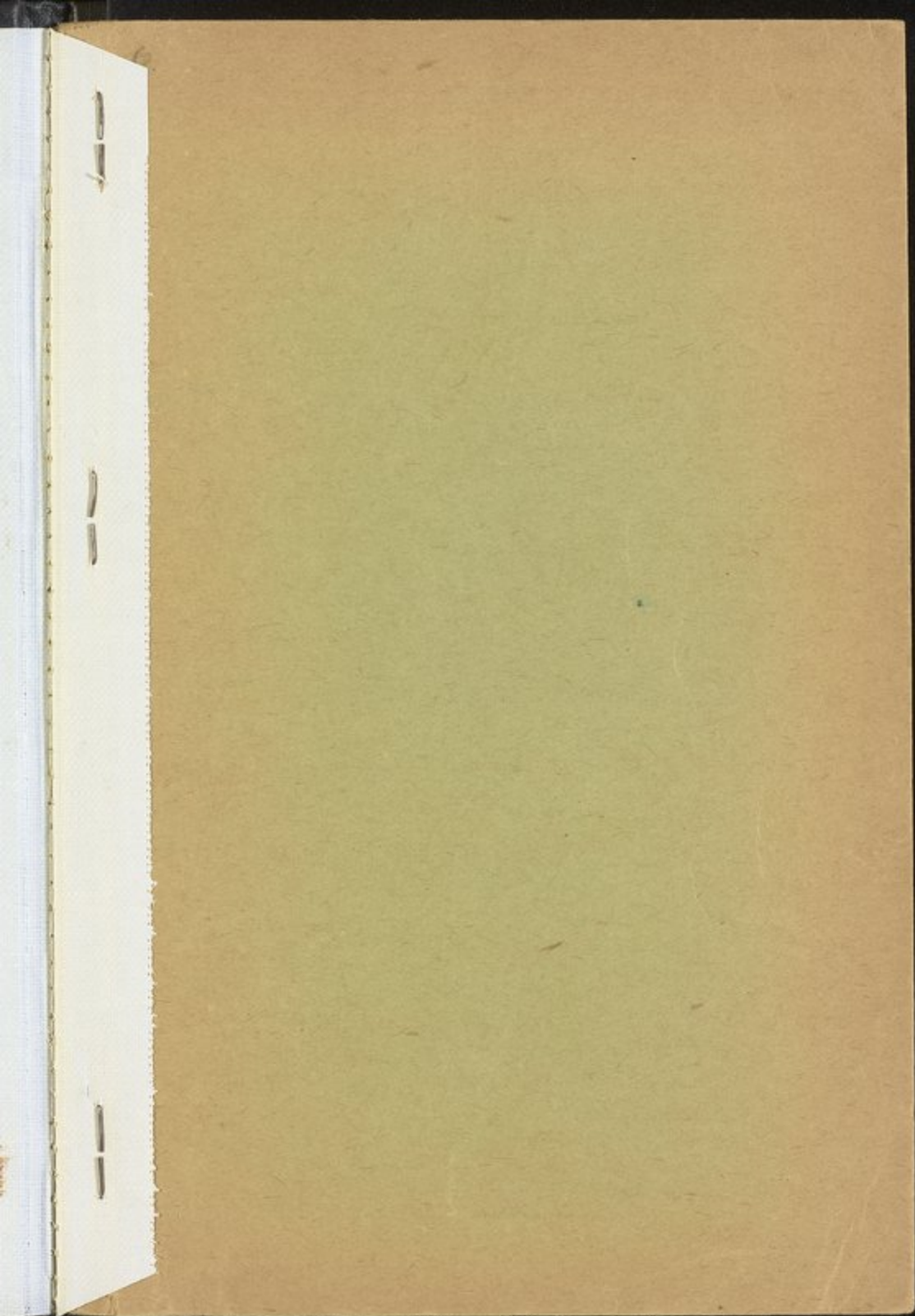
[تم كتاب « نور الاقتباس ، في مشكاة وصية النبي ﷺ
لابن عباس » تصنيف الإمام العالم الحافظ ، شهاب الدين
ابن رجب الحنبلي عفا الله عنه ، وأدخله جنته بمنه وكرمه] .

فرار

[قرر مجلس إدارة جماعة التعاون العلمي طبع
كتاب تفسير سورة يس للأستاذ العلامة المغفور له
الشيخ عبد الفتاح خليفة رحمه الله رحمة واسعة] .

(١) سورة ابراهيم ، آية : (٣٤) .





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074443936

368
(NEC)
BP135
.A2
I2675
1946